الباحثون الايطاليون ودراسة التاريخ العربي

للمستعرب الايطالي الأستاذ أومبرتو ريتسستانو

ترجمه عن الايطالية : عيسى الناعوري
(الأمين العام لمجمع اللغة العربية الأردني)

تمهيـــد

هـــذه المراجعة الموجزة لمشاركـــات الباحثـــين الايطاليين في حقـــل (التاريخ العربي) خاصـــة ، لا تشمل الاشارة الى المؤلفـــات ذات الطابع السياسي والديني ، لان ذلك اكثرُ اتصالا بموضوع الاســـلام بحدوده الواسعة ـــ والدراسات الاسلامية تدخل في نطاق ما يدعى باسم « الاستعراب الاسلامـــي » ، الواسع الاستعمال ـــ غير ان وجود فصل في هـــذا البحث حول (الدراسات الاسلامية) ، كان القصـــد منه ان يُحول دون اي تحديـــد لا ارادي قد يقع عند الحديث عن حضارة ـــ كالحضارة العربية الاسلامية ـــ كثيرًا ما يتعذّر معهـــا فصل المسيرة التاريخية عن تطوّر العقيـــدة ونموّهـــا .

وبالنسبـــة الى الاساس الذي سرنا عليـــه في تقديم المعلومات هنا ، نذكر انـــه ، من أجل ترتيبٍ افضلَ لهذا البحث ، كان لا بـــدّ من التضحية بالتسلسل التاريخي للمشاركات الفردية المختلفة ، حفاظا على تسلسل الفترات التي ألْفنـــا تحديدها زمنيًّا ؛ واعني أن تلك الفتـــرات التي تبدأ بالعهد الجاهلي ، ثم تمـــرّ بالنبي محمـــد ، وخلفائه الراشدين الاربعة ، والخلافة الامويـــة ، ثم العباسية ، الـــى سقوط الخلافة في

بغداد عـام ١٢٥٨ ، قد تلاها الانحطاط ، أو الركود ، الذي غلب على العـرب حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حين بدأت في بعض الاقطار العربية ، الافريقية والآسيوية، تباشير عهـد النهضة . وعند عصر النهضة بتوقف حديثنـا .

• • •

حَوْلِيّات الاسـلام

في الوقـت الذي تتناوله مراجعتنا الموجزة هذه ، من حيث الترتيب الزمني ، تَبْرُز بين المستعربين الايطاليين والاوروبيين شخصية عملاقـة ، هي شخصية ليوني كائيتاني . ففي الاعوام التي تَلَـت الحرب العالمية الاولى مباشرة ، نجده ينصرف من جديد الى عملـه في (حَوْلِيّات الاسلام) التي كان قد انقطع عنها بتطوّعه في الجيش . ونحـن نحيل من يُوَدّون معرفة شيء عن أسرة كائيتاني الشهيرة ، وابنهـا العبقري الفـذّ ، الى كتاب فرانشيسكو غبريلي (آخر آل كائيتاني) ، كما نقتـرح على من يدفعهم الفضول الى معرفة البيئـة التي وُلِدَت وتطوّرت فيها تلـك (الحوليات) أن يقرأوا — ان لم يقرأوا بعـد — الصفحات الرائعة ذات الطعم الفَسَقِيّ ، التي كَرَّسها جورجيو ليفي ديلاّ فيدا في كتابـه (سقف الحوانيت المظلمة) ، ففي هذا الكتاب اهتـمّ ذلك العالم باللغات السامية والمؤرخ الشهير للاسلام ، بالاصالة والدِقّة اللتين عُرِفَت بهمـا ابحاثه ، بأن يُبْرِز المزايا العديدة والهَنات الضئيلة لعمل كائيتاني الجبار ، وللنتائج العميقة والحواشي النيّرة التي أَلَّفَتْ معا تحليلا ناقدا من أدقّ الاعمال التحليلية وأصوبها . وقد أوصله الى ذلك اطّلاعُه التاريخيّ والدينيّ العجيب ، وكذلك ما لا يجوز إغفاله من انه كان ، هو وبعضُ المستعربين الآخرين ، بين الذين تعاونوا في العمل مع كائيتاني تعاونا فعالا . ولهذا نرى أنّ من الادّعاء الذي لا يُغْتَفَر ان نحاول اضافة شيء افضل او اكثر مما جـاء في الكتابين المشار اليهما ؛ ونعترف باستحالة فحص كل محتويات (الحوليات) ، لان هـذا لا يستطيعه الاّ مَن قـرأ قراءةً كاملة كـلّ الصفحات الـ ٧٠٠٠ من تلك الحوليات . ولذلك نكتفي بأن نذكـر في هذا المقام ضمن أيـة حدود زمنية وتاريخية يَجري القسمُ الاكبـرُ

من عمل ذلك المؤرخ ، دون أن نتغاضى عن إبراز بعض مزاياه الكثيرة ، رغم ما نخشاه ، بل نحن واثقون منه ، من تكرار ما أحسَنَ كتابَتَهُ ليفي ديلاّ فيدا وغبربيلي .

ونحن نتّفق تماما مع ليفي ديلا فيدا في اعتبارنا أنه « اذا كانت أُولى نوايا كائيتاني التفكير في جعل عمله يقتصر على جمع المواد وعرضها ، فهو خلال ذلك قد شعر بدافع لا يُقاوَم الى التمحيص والبِنَاء ، فاضاف بذلك الى عملِ جامعِ الوقائع ، عملَ المؤرخ » . والواقع أنه منذ الجزء الاول الخاص بتاريخ العرب في الجاهلية ، وقسمٍ لا بأس به من سيرة الرسول ، بدا جليًّا ان كائيتاني كان يعتزم أن يجعل عمله أكثر اتساعًا واحاطةً مما كان العنوان يسمح بافتراضه . وهذا التمحيص للمصادر الذي التزم به المؤرخ منذ البداية ، ازداد دقة في الأجزاء التالية التي زوَّدها بكثير من التنبيهات الصغيرة والمفيدة ، وذات الطابع البنائي . ولقد شَجَّعه ما لقيه من تأييد كبار الباحثين ، ولم يُثبِّط همته ما لقيه احيانا من النقد الذي لا بدّ منه . ومضى كائيتاني يعمل بهمة نشطة وحماسة متواصلة في نشر الجزاين الثالث والرابع ، وهو يزداد يقينا من أن الخطّة الجريئة التي اختطّها ليجمع في عشرة أجزاء أحداث ما يزيد عن ٩٠٠ سنة من التاريخ (اي حتى احتلال العثمانيين لسوريا ومصر ، سنة ٩٢٩ هـ . ١٥١٧ م .) كان لا بدّ من تعديلها تعديلا اساسيا . وقد عَبَّر عن تلك الضرورة بصراحة في مقدمة الجزء الخامس حيث يقول : (ان وفرة المواد تستمرّ في قلب التوقّعات المتكررة حول عدد اجزاء الحوليات . . . وسيجد البعض حجة لانتقاد الابعاد التي ما تني تأخذها ... لان استمرار العمل على قاعدة شديدة الاتساع ، يزيد من صعوبة إنجازه . . .) .

ويتبع كائيتاني تصريحه هذا بتوقُّعٍ ، لا شك في انه أكثر واقعيةً من ذلك الذي سبق ان تكوَّن لديه حين شرع في تنفيذ تلك المهمة الموسوعية ، وهو انه من الممكن ان يصل بعشرين مجلَّدا أُخرى الى نهاية العهد الاموي . « لقد عَمِلتُ حسابا — كما يقول بعدئذ — بانني

لـــو استطعت الثقة من أن اعيش عشريـــن عاما اخرى مـــن العمل الجاهد ، وبالمساعدة النشيطة التي يُقدِّمها لـــي بعض المعاونين القديرين ، فلربما استطعت أن أُقـــدِّم للطبع نحو عشرين كتابا مثل تلك الكتب التي صدرت حتى الآن . . . مستمرًّا على غرار تلك الكتب السابقة دون تغيير في الطريقة او النوع . ان النتيجة واضحة : فحياة انسان بكاملهـــا ، اذا كُرِّسَت لهذا العمل ، قـــد تبلغ بالحوليات الى بدايـــة الخلافة العباسية فقط ، دون أن تمسَّ كلّ عصور التاريخ الاخـــرى ... لهذه الاعتبارات وسواها ، مما أُريحُ القارئَ من سرده ، توصلتُ الـــى أن أُقرِّر الشروع في طبع كتاب آخر ، تكميلي ، او على الاصح ، مُكَمِّل ، يكون الصـــورةَ او الشكل التحليلي تقريبا للعمل الاكبر ... » . ومـــن هناك نشأت (الوقائع الاسلامية) التي استُخْدِمَتْ فيهـــا ، في موجزات اخبارية ذات صلة بتاريخ الشعوب الاسلاميـــة ، الجزازاتُ التي لا عَـــدَّ لها مما جمعه خلال إعداده لعمله الكبير . غـــير أن كائيتاني لم يستطع ، حتى مع هذه المهمـــة الجديدة التي وَقَفَتْ عند عـــام ١٤٤ هـ / ٧٦٢ م ، أن يُحقِّق ما كان قد حَزَم امره عليه من الوصول الى حدود عـــام ٩٢٩ هـ / ١٥١٧ م ، كما كانت نيّتـــه الحازمة ، بل ظَلَّ ذلك مرةً اخرى طُموحًـــا وهْميًّا . ولم تكن اقـــلَّ وَهْمًا كذلك ــ كما تَجلَّى بعدئذ في ما يتعلـــق بالحوليات ــ توقعاتُ المؤرخ حول (الوقائع) ، فانـــه لم يُكمل بَعْدَ ذلك من عمله العظيم اكثر من خمسة اجـــزاء اخرى ، بلغ معها العمـــل الى الجزء العاشر ، الـــذي وصل الى سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م (نهاية خلافة علـــي) . وهذا يعني اقـــلّ من ثلث ما كان قد خَطَّط لـــه بجراة حماسية .

ان هـــذه الحوليات ، التي اعاد كائيتاني نشر بعض موادّهـــا في جُزْأي كتابه (دراسات في التاريـــخ الشرقي) ، سرعان ما لقِيَتْ تقدير الاوساط العلمية الاستعرابية وغيرها ، في ايطاليا وفي الخـــارج ، وليس فقط للعمل الجبار في جمع اكثر من مئـــة وخمسين مرجعا تاريخيا ،وتاريخيا ادبيـــا ، ومُرْزها (واغلبُها ما يزال غير مطبوع) بـــل لاعتبارها ايضا مرجعـــا لا مثيل لـــه في الحقيقة ، لمعرفة العهـــد الاسلامي الاول ،

وللاعتبارات النقديـــة والتمحيصية العديـــدة ، والحدس العبقـــري ، والفرضيات المغرية المنبثّة في ثنايا ترجمات النصوص أو تلخيصاتهـــا . ولئـــن كانت مواقفُ الباحث المتساهلة جـــدًّا مع الايجابية التاريخية ، ونَقْدُه العنيد لقيمة الابحاث التاريخية التقليدية في شؤون الاســـلام ، لم تَلْـــقَ اصداءً حسنة لدى المختصّين ، فـــان هؤلاء انفسهم ، حتـــى في عـــدم اتفاقهم معه ، قد ابدوا اعجابهم الشديد بمواهبه ومقدرتـــه العلمية ، واثنوا دائما على المثابرة والدأب اللذين ابداهما في قيامـــه بتلك المهمـــة التاريخية ، مُشيدين بنشاطه في التنقيب التاريخي ، وعكوفه على البحث الدائب ؛ ناهيك بالثناء علـــى الروح التي تَحلّى بهـــا في اعادة صياغة المـــادة الخام التي كان يعثر عليهـــا .

لختـــام هذا الحديث نضيف الى ما تقدم ان (حوليّات الاســـلام) ، حتى في نموها المحـــدود في هذه الوقائع بأجزائها العشرة ، قـــد رَدّت الاعتبار والفضل الى الدراسات العربية والاسلاميـــة في ايطاليا ، بعد ان فَقَدَت قيمتَها الصحيحة في حقـــل الحوليات التاريخية منذ (الحوليات الاسلامية) العشوائية التي كان قد جمعها (ج . رامبولدي ــ ميلانـــو ١٨٢٢ ــ ٢٥) والتي لا يستطيع حتى النقـــدُ المتساهل أن يُضفـــي عليها ولـــو قيمةً ضئيلة من الاصالـــة .

وفي سنـــة ١٩٢٦ ، سنة ظهور الجزء الاخير من الحوليـــات ، كان قد صَحَّ عـــزم كائيتاني على مغادرة ايطاليا ، لاسباب مختلفـــة . وقد نَفَّـــذ عزمه ذاك ، ولكنْ بعد ان قرّر ان يَعْهَـــد بمؤلفاته ومـــوادّه الدراسية الاخرى الى (مؤســـسة كائيتاني) التـــي أُنشئت في الاكاديمية الايطالية (اكاديمية الفهـــود) وكان الغرض من ذلك رغبته في أن يهيىء للباحثين الآخرين الشهادات الناطقة بتكريس عشرين سنة من عمـــره لدراسة التاريخ العربـــي . وربما كان يأمل ــ املاً لم يتـــمّ ، مع الاسف ــ أن يقوم غيره باكمال عملـــه .

مـــع التسلسل التاريخي :

ونمضـــي نحو الهدف الذي رمينا اليه واعربنا عنـــه في ما تقدم ، من أن نستمر في دراستنـــا السريعة ، مُتَوَخّين قبل كل شيء تَتَبُّـــع الاحداث التاريخية ، فنرى من المناسب أن نبـــدأ بإبراز الاعمال التي نجـــد فيها جميع قرون التاريخ العربي الثلاثة عشر ، او الاربعة عشر ، او قسما كبيرا منهـــا موجزة في رؤية اجمالية . ومن هذه نستدلّ علـــى المنشورات الثقافية الجديرة بالاعتبار ، والتي تقوم الجدّية العلميـــة ، وثقافة المؤلفين الواسعة ، ضمانةً كافية لصلاحها واهليتهـــا .

اولُ محاولـــة لجمْع تاريخ مثل هذا العدد الكبير من القرون ضمن حدود ضيّقة ، قامت بها السيدة لاورا فيتشيا فاليري . ففـــي الفصل الذي عقدته على (العـــرب) والمنشور في كتاب (حضارات الشرق) ، وضعت خطوطا لرسمٍ سريعٍ وكامل لتاريخ ذلك الشعـــب ، واستطاعت أن تُجرِّد التاريخ مما لا حاجةَ اليـــه في مثل هذه الابحاث التاريخية . وكان اهـــمَّ من ذلك كثيرا اهتمامُ مستعربتنا هذه في كتابهـــا (الاسلام ، من محمـــد الى القرن السادس عشر) بأن لا تستعرض تاريخ العـــرب فحسب ، بل توجـــز خصائص الاسلام التاريخية ، والدينية ، والثقافية ، وكذلك الادبية والفنية . انهـــا لدراسة واسعة للعالَم الاسلامـــي ، دون استثناء لعناصره الفارسية ، والبربرية ، والتركية . وهذه الدراســـة تجـــد ختامها المنطقيّ في بدايـــة القرن السادس عشر ، فتلتقي زمنيًّـــا بِعُثْمَنَة العالم العربي المتوسّطي . وهذا ما لم تستطـــع ان تصل اليه (حوليات الاســـلام) ، كما اوجزنا في ما تَقَـــدّم .

امـــا فرانشيسكو غبريلي ، الذي ستتوالى في هذه الدراســـة الاجمالية وفي غيرهـــا الاشاراتُ الى جهوده الجبارة في حقـــل الدراسات الاستعرابية ، والاسلاميـــة ، والفارسية ، فقد صادفَ بكلّ جـــدارةٍ نجاحا كبيرا بكتابه (العـــرب) ، الذي يستحقّ التقدير الكبير لحســـن توزيعه للمـــواد ، ووضوح عَرْضه حتى للاحداث العربية التي لا يتـــاح الوضوح في عرضها الا لقلّـــةٍ من المتفوقين ، وكذلك لبعض اللمحـــات

الشخصية التي لا يصل اليهـا بسهولة غير العالِم المتخصّص . ومزايـا هذا الرسم الجانبيّ الكامل للتاريـخ ، المرسوم في ضوء رؤيـة دؤوبـة ممحّصة نقادة ، من اقـدم العصور الى ايامنا هذه ، يؤكّدها ان هـذا الكتاب سرعان ما تُرْجِـمَ الى الانكليزية والفرنسية والالمانيـة . ولا يختلف عن هـذا الكتاب ، من حيث التقسيم التاريخي ، كتابٌ آخـر هو (العرب ، من العصر الجاهلي الى اليـوم) ، لأُومبرتو ريتستانو . فبعد استعراض وافٍ لا بـدّ منه للأحداث التاريخية العربيـة مـن الوثنية الى العصر الحديث ، نجـد احدثَ الظروف والشؤون العربية معروضة عرضا وافيـا ، ومنها ما لا يزال الى اليـوم يفرض نفسه على اهتمام العالم الغربـيّ ــ غير الواعي دائما ، مع الأسف ــ . واخيرا سنذكر في هـذا العرض السريع للملامح الشاملة لأحداث الشعـب العربي التاريخية ، ان لفظة (عـرب) والفقرات الخاصة بعِلْم الأعْراق ، وبتاريخ اسم (الجزيـرة العربية) في (دائرة معـارف تريكّاني) قد حرَّرَها جورجيو ليفـي ديلاّ فيدا ، وهي تحمـل الخصائص المتميزة للمعلومات السريعة الحسنة التبويب ، والتي لا تعرف التعميمات السهلة .

الجزيـرة العربيـة :

مـن السهل ان يُدرك المـرءُ ان الجزيرة العربية ، قبل ان يُجَدِّد الاسلامُ مجتمعاتِها القائمة على البنـاء البدويّ ، والخاملة الى حـد مـا ، والتي تُعْوِزنا معرفتها لندرة المعلومات والوثائق ، وتصعب معرفـة بعض مظاهرها الفريدة ، قد كُتِبَت فيهـا الابحاث والرسائل العلمية ذات الطابع التاريخي في أساسها . وهذا ما عُقِـدَ عليه الفصل الاول من (تاريخ الديـن الاسلامي) لميكيلانجيلو غويدي . واكثرُ من ذلـك الفصلان الأوّلان من كتابـه الذي نُشِر بعد وفاتـه بعنوان (تاريخ العرب وثقافتهم حتى وفاة محمـد) الذي جاء تمهيدا لا بـدّ منه لحديثٍ اشمل حول ثقافة العـرب . ولكن هذا الحديث لم يُكْمَل بسبب وفـاة المؤلف المبكرة . ومع ذلك لم يَخْلُ الكتاب المذكـور من عَرْضٍ كافٍ للبيئـة الاجتماعية التي تكوّنت فيها هذه الثقافـة في اقدم الازمنة . وكان غويدي

يعي هذه الحاجة ، فرسم للجزيرة في وثنيتها لوحة امينة بقدر الإمكان ، استنادا الى المادة التاريخية الواسعة التي استطاع ان يُجْمَعَها خلال سنين عديدة ، ويُقيِّمها بحسّ تاريخي عجيب ، وبروح مجرّدة من كل شكل من اشكال النقد الاعتباطي الذي لا مبرّر له ، مع ان الكثير منها خرافي .

وهناك اعمال اخرى لباحثين قديرين اقتصرت تماماً على الجزيرة العربية في جاهليتها . وان الواجب ليدفعنا الى ان نذكر في مقدمة هؤلاء الباحثين اغناطيوس غويدي ، الذي جَمَع تحت عنوان (الجزيرة العربية قبل الاسلام) اربع محاضرات القاها بالفرنسية عام ١٩٠٩ في جامعة القاهرة ، حيث دُعي لالقاء دروس في الأدب الجغرافي والتاريخي واللغوي عند العرب . واذا لم يكن هنا المجالُ لتذكير المختصّين بمزايا هذا المستشرق العظيم ، وفضلِهِ في مختلف حقول الساميّات المتعددة ، فاننا نرى من فضول القول ان نؤكّد ما لهذه المحاضرات الاربع من قيمة رفيعة ، يستطيع ان يُلْمَسَها حتى الجاحدون ، حول مهد الحضارة العربية في شمال شبه الجزيرة وجنوبها . وهي تؤكد ما لاغناطيوس غويدي من مقدرة فريدة على تحويل المادة الجافّة المتعلقة بظروف الثقافة العامة ، الى عمل علمي .

غير أن الباحث الذي انقطع في الماضي القريب ، وبشكل يكاد يكون مضرب المثل ، الى صرامة البحث العلمي في دراسة الجزيرة العربية قبل الاسلام ، كان كارلو الفونسو نَلّلينو ، الذي جُمِعَت آثارُه العلميّة في هذا الحقل الخاص ، بعد نَشْرِها في مجلات عديدة ــ ولم يُنْشَرْ بعضها من قبل ــ في المجلد الثالث من مجموعة اعماله العلمية ؛ وقد نُشِرَت هذه المجموعة بعد وفاته في ستة مجلداتٍ بعنوان (مجموعة كتابات منشورة وغير منشورة) . والباحثون في علوم العربية والاسلاميات ، المختصون بدراسة مهد الاسلام من المستشرقين وغيرهم ، يعيد الى اذهانهم اسمُ نَلّلينو كثيرا من الكتابات الفنية حول العقيدة الاسلامية ، ومن الاشارات القاطعة حول وجود الادب في الازمنة القديمة . ومن

ذلك بحثه بالفرنسية تحت عنوان (هـل كانت لمصر صلات مباشرة بجنوب شبه الجزيرة العربية قبـل عصر بطليموس ؟) وأكثر من ذلـك ابحاثه الاخرى الخاصة (بالعربيـة السعيدة) التي انفصلت عن شبه الجزيرة بتركيبها الاجتماعي والدستوري ، ومنها (اليمـن في العصر الجاهلي) ، ويكمله ايضا (اليمن في العهـد الاسلامي) ؛ وهما بحثان متميّزان وكبيرا القيمة ، كَتَبَهُما حول كلمة (اليمن) لدائرة معارف تريكّاني . وفي مقالات أخرى عديدة مدوّنة في الجـزء المشار اليه من (مجموعة كتابات) ــ ولم نذكرها هنا ، لانهـا سَبَقَت الاعوام الخمسين التـي تتناولها هذه الدراسة ــ نجـد اشاراتٍ متلاحقة الى (الجاهليـة) . ونحن نجـد للجاهلية تاريخا كاملا في (الجزيرة العربية قبل الاسـلام) .

ولكن هـذا الكتاب ، بحكم الاهداف التعليمية التـي وُضِع من اجلها ، يختلف عن سابقاته بعرضه السهل ، الذي تَخَلَّص عَمْـدًا من التقنية الزائدة ، ولكنـه دون ريب بعيد جـدا عن الضعف او عـدم الاتقان ؛ فلقد كان هذا المعلّـم الشهير أبعدَ ما يكون عن الضعـف وعـدم الاتقـان .

وفي وثنيـة الجزيرة العربية نجـد كتاب (الجزيرة العربية قبـل الاسلام : التراث العربي) ، وقد وضعه ليفي ديلا ڤيدا باللغـة الانكليزية . وبعد أن يرسم المؤلف لوحة رائعة لمهـد الاسلام ، يمضي في الحديـث على ذلك التراث العربـي الذي عرفه الباحث كما لم يعرفه غير القليلين ، لِمَـا شَغَلَ بـه نفسه طويلا من التقييم الواعي ، والدراسة الناضجـة ، والفحص الناقد للمصادر . هـذه الاعمال جاءت نتيجةً للبحث العلمـي الجادّ الصارم في تاريخ بَلَـدٍ كانت أرضُه الجنوبية ــ اليمن الاسطورية ــ قد أوحت ببعض الاعمال والابحـاث في العصر الحديث . ونقتصر ههنـا على ذكر (اليمن في التاريـخ والاسطورة) لكارلو أنسالدي ، وهو كتـاب يُعيـدُ تركيب بعض الصور والوقائع التاريخية التي يُعْوِزُها العـرض الصحيح أحيانا . وكما هـو معروف ، يمكن أن نعتبر الشعر العربـي في العهد الوثني ، بكثير من الثقـة ، تعبيرا أدبيا عن العرب في ذلك العهد ،

يُمثّل في الوقت نفسه واحـدا من اكثر المصادر مباشرة واصالة لمعرفـة المجتمع البدوي القديـم . ولذلك كثيرا ما اشار مستعربنا الاوثق والاكثر معرفة بالشعر العربـي القديم ، فرانشيسكو غبرييلي ، الى الوثنيـة العربية ، لضرورةِ وضع اطار لأقدَم تحول البُرْناس العربـي ضمن ذلك النطاق التاريخي ، والتاريخي الثقافي .وكـان اطول من ذلك وادعى الى عمق التفكير انشغاله المتمهّل بالتراث التاريخي والاسطوري فـي ذلك العهد . واكثرُ مـا يكون غَرَضُ ذلك البحاثة تحديدا ، كان في وضـع البداوة العربية في صلـة مباشرة مع اللحظة الشعرية ، كما فعل في ابحاثه التاليـة ـ : (المجتمع البدوي والشعر الجاهلي ـ القبليـة والدولة في الشعر العربي القديم ـ الادب البدوي الجاهلـي) وكلّهـا موضوعاتٌ عـادَ الى بحثها من جديد في دراسته للعهـد الاسلامي في كتابه الفرنسي (القبليّة العربية والدولـة الاسلامية في العصر الاموي) ، وفيه أجـاد غبرييلي اختيار مقاطع شعرية ، وترجَمَها الى الايطاليـة بمهارته المعروفة واناقـة صياغته . وكان ذلك مما سكتت عنه المصـادر التاريخية ، او اشارت اليـه اشاراتٍ غيرَ واضحة دائمـا .

• • •

العهـد الاسلامـي :

ويجـيء الآن الوقت الذي نُعْبُر فيه من شبـه الجزيرة العربية الوثنية الى ابنهـا الاعظم ، نبـيّ الاسلام ، الذي كانت سيرتُه موضوعا لأروعِ الابحاثِ التي قـام بها كائيتاني ، ثم اصبحت بعد ذلك ، في عـام ١٩١٧ ، مـادة لمناقشاتٍ وابحاث علمية واسعة ، راحت تتزايد وتنمـو مع الايام ، على اثـر اطروحةٍ علمية للدكتوراة حَوْلَ اقـدم الاحاديث المتعلقة بحياة محمـد . وبعد بضع سنوات قامت السيدة فرجينيا ڤاكّا دى بوسيس ـ التي اثارت ذلـك النقاش غير عامدة ، ولم يُلْبث اسمُها ان برز بين كبارِ المستعربين ـ بنشر كتابها (سفارات محمـد الى الملوك ، في رواية ابـن اسحٰق والواقدي) ؛ وفيه درست ، على أساس الاخبار التي أوردها المؤرخان المذكوران ، علاقات الاسلام في بداياتـه بالنجاشي ، وكسرى الثاني ، وهرقـل ، والمقوقس .

وبين اوائل الباحثين الذين عُنُوا بوجوب فصل الخرافة عن التاريخ ، في تلك الغابة الكثيفة من الاخبار التي وصلت الينا من الروايات التاريخية العربية ، نجد كارلو نَلّلينو . فَبَعْدَ أن كَتَب بحثا رائعا حول سيرة النبي ، كَتَبَ كذلك بحثا حول اسم (محمد) لدائرة معارف تريكّاني ، قَسَّمه حسب التقسيمات الكلاسيكية : الحداثة ، العهد المكّي ، العهد المدني ؛ وبعض الاعتبارات القصيرة العامة التي كان البحاثة قد اطال الكتابة فيها في بحث له بعنوان (في الذكرى المئوية الثالثة عشرة لوفاة محمد) . ومن المفروض أن ميكيلانجيلو غويدي ، في الفترة نفسها ، كان معنيًّا بترتيب مجموعته ، وفي دراسة المراجع التي استمدّ منها فصل (النبيّ محمد) وتنسيقها . وكان ذلك الفصل هو الثالث والاخير من كتابه المذكور آنفا (تاريخ العرب وثقافتهم) . في هذه الصفحات يبدو هنا وهناك اقتناع غويدي المسبق بأن ثمة تأثيراً اساسيا للروح العربية في الحضارة الاسلامية . وكان الكاتب يودّ أن يثبتها فيما بعد بأدلة يفترض انها ثابتة واصيلة ، لو قُدِّر له أن يبلغ بكتابه الى منتهاه .

اما الابحاث التي ضَمَّنها غبريلي كتابه (مظاهر من الحضارة العربية والاسلامية) ، فقد كان الغرض الاساسي منها التعميم ، والقليل منها كان بقصد التاريخ — كما يوضح ذلك عنوان الكتاب — كانت ثلاثة من هذه الابحاث تدور حول نبي الاسلام ، فَنُقَدِّمُه اولاً الى القراء منصرفا الى حوافز تجربته الدينية ، ثم مُواطناً اولَ في مجتمع المدينة . حتى في هذه الخطوط القصيرة يبدو البحاثةُ رسّاما ومفكرا بارعا في رسم الملامح واللمسات التاريخية السريعة ، والجديرة بأن تقول شيئا جديدا حتى للمتخصص ، ولكنها بشكل خاص تُثَقِّف الجاهل دون ان تفرض عليه عناء الثقافة المتخصصة جدا . وبعد اعادة صياغة الابحاث المشار اليها حول شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وحول محمد ، في مقال بالالمانية عنوانه :

Mohammad und der Islam als weltgeschichtliche erscheinungen

ظهر ضمن سلسلة (تاريخ العالم) ، كُتَبَ غبريلي كتابا بعنوان (محمد والفتوح العربية الكبيرة) هو ، في الواقع ، كتابٌ قليل عليه ان يُنْعَتَ بأن قراءته ممتعة . وهذا العمل الجديد يرمي ، كغيره ، الى تعريف عامة المثقفين بمظاهر خاصة من حضارةٍ قد لا يعرفونها الا على وجه التقريب . ونجد فيه ثلاثة فصول متكاملة حول نبي الاسلام ، تُقَدِّمُه أولاً في ضوء تقديس أتباعه له ، ثم يلي ذلك حالا تقديمُه في ضوء حكم المسيحية السلبي في دفاعها عن عقيدتها خلال القرون الوسطى ، ثم في ضوء التقييم المستنير الجديد ، واخيرا في الرؤية الرومنتيّة (كصاحب شريعة ، وملهَمٍ عظيم) و (كموقظ لقوى شعبه الهاجعة) . وكان المستعربون والباحثون في الاسلام قد قاموا ، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، بالعمل على قواعدَ أوثقَ واثبت في اعطاء حكم تاريخي أكثر توثيقا ومصادر حول باعث العروبة ورسالته النبوية . وهذه الصحائف التي كَتَبَهَا غبريلي والتي جاءت بَعْدَها ، وَرَدَتْ فيها ، ببراعة المعلم القدير ، احداثُ حياةِ محمد في مكّة والمدينة ، وبالتالي أوضحت بجلاء خُطى الاسلام الماضية قُدُمًا الى اقصى مدى لانتشاره في الشرق والغرب . واذا كانت هذه الفصول تلتقي في الاصل التاريخي العامّ مع أعمالٍ علمية مشابهة لها لعلماء آخرين ، فانها تختلف عنها اختلافا تاما من حيث المقارنات الجديدة ، ومن حيث التقييمات الدقيقة التي غالبا ما تتميز بالاصالة المطلقة .

ويقتضينا واجب الامانة العلمية ان نختم هذا الحديث بان نُذَكِّر ان في الكتابات المتعلّقة بسيرة محمد ، والتي تتضمّنها كُتُب التاريخ العربي العامّ المشار اليها ، وكذلك في المؤلفات الرامية الى التعريف بالاسلام — ونذكر منها ابحاث مارتينو ماريو مورينو ، ولاورا فيتشا فاليري — اقتَصَرَ المؤلفون على البناء المألوف ، ولم يبتعدوا عنه الا ليُدخِلوا فيه أفكارا واستنتاجات ذات طابع شخصي .

• • •

بعد الانتصارات العسكرية المدويّة الأولى للاسلام ، والتي نَجِدُ منها في كتاب فرانشيسكو غبرييلي المذكور صُوَرًا ملحميّة من المعارك الآسيوية والافريقية ، اندلعت في المجتمع العربي والاسلامي، الهشّ حينئذ ، نارُ الحرب الاهلية بمبايعة عليّ بالخلافة . فلقد اعترض عليها معاوية اعتراضا شديدا عنيدا ، الى حدّ المناداة بالحرب . وكان أول من درس المواد التاريخية التي يتضمّنها كتاب (انساب الاشراف) للبلاذري ، بِقَصْد المضيّ نحو اعادة بناء فكرة صحيحة عن تلك المعارك التي كان سببها الوصول الى السلطة ، هو جورجيو ليفي ديلا ڤيدا ، عام ١٩١٥ . وكان قد أتيح له أن يصل الى معرفة ذلك النصّ وتقدير اهميته ، في اثناء معاونته في (حوليات الاسلام) . ونتج عن ذلك ان اصبحت هذه لديه رسالة يؤديها في فترة ما . وبعد قرابة عشرين سنة اخذ ذلك العالِمُ بالساميّات يهتمّ بالعودة الى دراسة ذلك الكتاب بمعاونة المرحومة أولغا بينتو ــ تلميذته ــ في القسم الذي خَصَّصه البلاذري للخليفة معاوية . ولكنه في الغالب كان يعتبرها مجموعة غير منظّمة أكثر منها اخبارا تاريخية ، أو مادة تتعلّق بالانساب ، شعرية أو جامعة . وبعد هذا الذي قدّمه جورجيو ليڤي ديلا ڤيدا ، وليوني كائيتاني ، وفرانشيسكو غبرييلي، وميكيلانجيلو غويدي ، ظَهَرَ كتاب آخر في دراسة الاحداث التي رافقت هذا المنعطف التاريخي الحاسم في بداية عهده . الكتاب للسيدة لاورا ڤيتشيا ڤاليري ، وقد عادت فيه الى فحص هذه القضية الصعبة على اساس مواد جديدة تاريخية ، وأخرى تتعلق بالانشقاقات الدينية ، مستقاة من مصادر (اباضية) استطاعت بواسطتها القضاء على بعض التناقضات ، وأن تسدّ بعض الفجوات المتعلقة بالاحداث . ودعمت السيدة فاليري ذلك بكتابها (ترجمة خطوات تتعلق بالنزاع بين معاوية وعليّ ، وانشقاق الخوارج) ، لتجعل منه فهرسا لا بدّ منه لأبحاثها الخاصة التي كتبتها بروح نقادة ، وتوثيق جاهد دؤوب . وقد استقت مادة كتابها هذا على الاغلب من (كتاب الجواهر) للبرّادي ؛ وهذا المؤلف يمكن اعتباره واحدا من اوثق مؤرخي الشيعة الاباضية

في افريقيا الشمالية . وبهذين الكتابين القيّمين اكتسبت مُستعْرِبتنا كفاءتها العالية في هذا الحقل ، بحيث ان العديد من (الكلمات) التي ورد شرحها في الطبعة الثانية من (دائرة معارف الاسلام) والمتعلقة بالفترة المشار اليها ، تحمل توقيعها ، واهمُّها اسم (عليّ ابن ابي طالب) .

أمّا كتاب البلاذري التاريخي الكبير ، الذي يمكن اعتباره اقدم المراجع التاريخية الباقية لدينا حول القرنين الأوّلَين من ظهور الاسلام ؛ فقد شارك فرانشيسكو غبرييلي مشاركة فعالة في الانتشار الواسع الذي لقيه — وكان قد عُهِدَ الى غبرييلي بتحقيق جزء من هذا الكتاب ، ولكنَّ من المؤسف انه لم يُنْشَر بعد — ومشاركته هذه هي في كتابه (خلافة هشام) الذي أعاد فيه بناء فترة المُلْك الطويل الامد للابن الرابع لعبد الملك على اساس المصدر المذكور وغيره من المواد التاريخية الموثوق بها ، وذات الصلة بالموضوع . على اساس من هذه الدراسة الاولى بدأ غبرييلي سلسلةً مرموقة من المشاركات في الدراسات التاريخية للعهد الأموي ، لم يلبث ان اغناها فيما بعد — الى جانب الفصول التي تَضَمَّنَتْها مؤلفاته الغامة المتقدّم ذكرها حول تاريخ العرب — ببحاث موثّقة جدّاً حول (الوليد بن يزيد ، الخليفة والشاعر — وثورة بني المهلب في العراق ، والبلاذري الجديد — والبطل الاموي مسلمة ابن عبد الملك) . وفي هذه الكتابات — كما في ما سبقها حول الفترة العباسية ، ممّا سبقت الاشارة اليه — تُصبح الاعمال التاريخية ، والاعمال الضئيلة الاهمية ، معالم واضحة بما يضفيه عليها من تفكيره واستطراداته ذات الطابع الاجتماعي ، والبيئي ، والثقافي ، والتي تُمَثِّل ، هنا وفي اي مكان آخر ، الجزء الادعى الى التقدير من انتاج غبرييلي العلمي والتعريفي .

وفي اطار العصر الاموي يدخل ايضا البحث الذي عنوانه (العرب في الهند) للمؤلف نفسه ، ومن خلال مصاحبة البلاذري ، ولا سيّما في كتابه (فتوح البلدان) المشتمل على القليل من المعلومات التي وصلت الينا في كتب التراجم والتاريخ العربية حول فتح السند ، وضع

غبرييلي كتابا حول محمـــد بن القاسم الثقفي ، الذي ضُمَّ الى الامبراطورية الأموية تلك الولايـــة الجديدة النائية ــ السّند ــ « حاملا معه الـــى الهنـــد ديانة جديدة ، وثقافة جديدة » . في هذه المـــرة ايضا يضيف غبرييلي في الفهرس ترجمـة لبعض الصفحات المأخوذة عن (الشاهنامة) ــ وهي رواية فارسية ، مـــن القرنين السابع والثامن ، منظومة شعراً عن أصل عربي مفقود من تاريخ الفتح ــ . ولهـــذه الرواية الشعرية ، القليلة الاهمية التاريخية بالنسبة الـــى الاحداث المشار اليها ، نجـــد تقييما مفيدا في الجـــزء الاول من البحث . ورغم خشيتنا من التكرار ، لا بـــدّ لنا هنا ايضا من ان نثبت بالتحديد ــ مثلما قَدَّمنـــا في العصر الجاهلي ــ أن هنـــاك مشاركات أخرى لمعرفة البيئات التاريخيـــة والاجتماعية في العصر الاموي ، نجدهـــا في جميع كتابات مستعربنا هذا ؛ كَتَبَها حول الصوفيين ، والشعراء ، والناقدين في ذلـــك العصر ، من الحسن البصريّ الى ، جميل بـــن مُعْمَر ، الى ابن المقفـــع .

وأمـــا عبد العزيز بن مروان ، الذي وُلِيَ على مصر عشرين سنة (٦٨٥ ــ ٧٠٤) للأمويين في دمشـــق ، حيث كان الخليفة أخوه عبد الملك ابـــن مروان ، فقد كتب حوله أومبرتو ريتستانو بحثا ، جـــاء استكمالا لدراستين كان قد كتبهما في شبابـــه حول الشاعر (ابـــو محجن نُصَيب ابـــن رباح) ، الشاعر والمولى المخلص لذلك الوالي (عبد العزيز بـــن مروان) ، وكان يُكْثِر في شعره المـــدح والشكوى ، وقد تضمَّنت كتـــب الادب مقاطع من قصائـــده .

وعلـــى غرار لاورا ڤيتشيا ڤاليري ، وبارشادها ، دَرَسَ مستعربون آخرون من المعهـــد الشرقي في نابولي ، مظاهر ووجوها خاصة مـــن الشيعة الاباضية ، وما كان لهـــا مع الشيعة الخارجية ، التي تحدَّرَت منها الاباضية ، من خلافات لا يستهان بهـــا في التاريخ العربـــي . أما العلاقات بين عبد الملك بن مروان وزعماء تلك الفئـــة المنشقّة ، فنجدها موضّحة في مقـــالٍ لروبرتو رُوبيناتشي عنوانه (الخليفة عبد الملك بن مروان والاباضيون) . ويشتمل المقـــال على ترجمةٍ لرسالة من عبد الله

ابـن اباض الى الملـك الاموي ، نقلا عن المراسلات التي جرت بـين الرجلين ، والتي لم يُحْفَظ لنـا التاريخ سوى بعضهـا .

• • •

العصـر العباسـي :

وكمـا هو معروف ، لم يجـد العصر العباسي بُعْدُ بين المستعربين مؤرخا ذا استعداد لأجـل العكوف على اعادة بنـاء القرون الخمسة من تاريخه . ولكنّ اهـمّ اثر دُرِسَ فيه شيء من ذلك العهـد الطويل ، لا يزال الى اليـوم كتاب (الوزارات العباسية ، من سنة ٧٤٩ الـى ٩٣٦) الذي وضعـه الفرنسي د . سورديل . أمـا من المستعربين الايطاليين ، فقد وضع س . موسكاتي ، العالم بالساميّـات ، سلسلة أبحاث حول تلك الخلافة وتطوراتها . وهـذا الباحث اهتـم اهتماما جادّاً بنشاط علميّ يباعِدُ بينه وبـين الاستعراب ، رغم انـه عمل في حقوله فترة من الزمن بموهبة وغُيْرَة . وقد سَلَّط ضوءا جديدا علـى بعض اللحظات الاساسية من الأسرة العباسية التي يُصْعُب بناؤهـا في الغالب ، بسبب الفجوات والاخطاء في الاخبـار التي يُمكن العثور عليهـا في المصادر . وأمـا نهاية الامويين الفاجعة فقد سَجَّل موسكاتي وقائعها في كتابه (مذبحة الامويين في التاريخ وفي المقتطفات الشعرية) . وأمـا بدايـة العباسيين الذين وصلوا الى السلطة بمساعدةٍ ثمينـة مـن (عبد الجبار بن عبد الرحمٰن الازدي) ، فقد خَصَّص لهـا ثلاثة ابحاث جَمَعَها تحت العنوانين التاليين : (دراسات حول ابي مسلم) و (ثورة عبد الجبار على الخليفة المنصور) . وكـان المنصور قد غاظه كثيرا مـا كان لمبعوثَيْه من نفوذ ، فقرَّر وضع حـدّ عنيف لحياتهما . ولكـن الاحداث اللاحقة لتلك الاسرة العباسية كانت أيضـا موضع اهتمام ذلك الباحث ، فقد أعـاد بناءها على أساس دراسة واعيـة للمصادر ، ونَشَرَها ، بمظاهرها السياسية والعسكرية ، في ثلاثة أبحـاث : هي : (دراسات تاريخية حول خلافة المهـدي ــ ودراسات تاريخية جديـدة حول خلافة المهدي ــ وخلافة الهادي) وهي كلّها مراجع لا غنى عنهـا

للباحث الذي سيحاول كتابة تاريخ الخلافة العباسية . فاذا ما وُجِد هذا الباحث ، فسيجد مواداً نفيسة تساعده على القاء الضوء على العلوية والخارجية خلال الفترة الاولى من العصر العباسي ، في بحث عنوانه (شطحات فكرية حول ثورتين عَلَوِيَّتين) ، للسيدة لاورا ڤيتشيا ڤاليري ، و (المراسلات بين المنصور ومحمد النفس الزكية) للكاتب ر . تراڤني ، وفي (تبادل الرسائل بين هرون الرشيد وحمزة الخارجي ، حسب كتاب « تاريخي سيستان ») للمستشرق المتخصص بالفارسية ج . سكارتشيا . وهذه دراسات استُخدِمَت فيها مصادر لم يَسْبُق فَحصُها .

بعد بضع عشرات من السنين من بداية الخلافة العباسية الدموية ، كان يمكن اعتبار هذه الخلافة قد توطَّدت اركانها . وكان من نصيب هُرون الرشيد فضلُ المضيّ على آثار الخلفاء الاربعة الأوّلين حتى تبلغ الخلافة اقصى زهوتها . وقد تضافرت الاساطير التي نُسِجَت حول شخصية الرشيد الملكية ، وحول امبراطوريته الزاهرة ، وبلاطه ذى الفخامة المذهلة ، مثلما تضافرت كذلك الانجازات غير العادية التي تمّت في عهده ، على تمجيده وتعظيمه .

ونحن فعلا نجد في كتاب (هُرون الرشيد ، تاريخ واسطورة) ، الى جانب الاحداث الرئيسية لذلك الخليفة ، التمجيد الذي أُسْبِغ على شخصيته بعد وفاته . وأمّا وُلداه ، فقد اهتمّ الباحث نفسه بايضاح النزاع الدمويّ الذي ثار بينهما لاجل ارتقاء العرش ، وذلك في ثلاثة بحوث كان قد كتبها في شبابه ، وهي : (وثائق تتعلّق بخلافة الامين ، في الطبري — وخلافة هُرون الرشيد ، والحرب بين الامين والمأمون — والمأمون والعلويون) . هذه البحوث التاريخية الثلاثة تتكامل مع العديد من أبحاث غبريلي الاخرى ، الادبية والدينية ، التي خَصَّصها للعصر العباسي . وهذا حقل كان قد بداه في بواكير دراساته العلمية ببحث عنوانه (حياة المتنبي) . ومن المؤسف ان دراسات الباحثين الايطاليين تتوقّف عند هذه الفترة من العصر العباسي ؛ وهي،في الواقع ، ازهى فتراته وأقواها . واما الفترة التالية فليس في وسعنا ان نذكر حولها

اكثر من بحث واحد حول (الفتح بن خاقان ، الرجل المفضل لدى المتوكّل) ، وفيه توضح السيدة اولغا بينتو صورة ذلك الرجل ــ الذي يلقّبه بعض المؤرخين خطأً بلقب الوزير ــ في شخصيته المزدوجة : شاعرا ، ورجل سياسة . وكان الفتح رفيق الطفولة للمتوكّل ، ثم أصبح مستشاره ، واحيانا مرشده وموجّهه . ونذكر هنا كتابا آخر للسيدة اولغا بينتو عنوانه (المكتبات العربية في العصر العباسي) .

غير أن العصر العباسي ، كما يعلم المؤرخون والمستعربون ، يعيد الى الذهن العلاقات بين اوروبا المسيحية والعالم الاسلامي : فالصلات بين هُرون الرشيد وشارلمان ، نجد حولها اشارات كافية الى حدّ ما لدى بعض المهتمين بدراسة العصور الوسطى ، الذين درسوا ــ لدوافع مختلفة ، وبنتائج مختلفة كذلك ــ النشاطات الدبلوماسية للملك الفرنجي . ومن بين آخر ما نعرف من تلك البحوث في ذلك الموضوع الشائق ، دراسة كتبها ج . موسكا ، وعنوانها (شارلمان وهُرون الرشيد) ، وفيها القى ضوءا على تلك الفترة التاريخية ، معتمدا على المصادر اللاتينية التي استمدّ منها اعتباراتٍ أصيلة حول الاسباب الدينية والسياسية التي دعت الغرب الى الاتصال بالعالم الاسلامي . وبعد نحو قرن من الزمن من تلك العلاقات ، قامت روابط اخرى بين حكومة بغداد واحدى الدوقيّات الايطالية ، او بالاحرى بين المكتفي وبيرتا التوسكانيّة ــ كما يُسْهُل ان نعرف من رسالتين متبادلتين بالعربية : رسالة كتبتها تلك المرأة الطموح بيرتا ، وردّ الخليفة عليها ؛ وقد نشرهما لاول مرة المؤرخ محمد حميد الله ــ واوّل من اثارت تلك الاتصالات الرسائلية اهتمامه الشديد كان ليفي ديلا ڤيدا ــ ومعه في وقت واحد تقريبا س . ج . مور كذلك ــ . لقد قام ديلا ڤيدا بترجمة الرسالتين الى الايطالية ، وقدّم لهما باخبار وافية حول المصادر العربية التي استعان بها ، وعقب عليهما بأفكار شخصية ثاقبة ، حول الاسباب الدبلوماسية والسياسية التي ربما كانت الاساس لتلك الاتصالات .

• • •

٧ المغـــرب واوروبـــا :

بـــدأ فتح المغرب ، كما هو معلوم ، منذ عهد معاوية ، ولكنه ثبت وتوطد في عهد بنـــي مروان ، وازداد ثباتا ومتانة في زمـــن العباسيين . وتلت ذلك سيادة الاســـلام التدريجية في وسط البحر المتوسط وشماله ، تمهيدا لغزو الاندلس ، ثم ، بعد قرن او اكثر قليلا ، لغزو صقلية ايضـــا . ولم يتـــم ادخال القوات العربية ــ البربرية الفتية الى المغـــرب المسيحي القوطي في اسبانيا ، والبيزنطي في صقلية ، دون اصطدامات في الواقـــع ، كانت مع ذلك تمهيـــدا للقاءات غنيّة غير قليلة ، نجـــد وقائعها التاريخية والاجتماعية والثقافية في كتابين اصبحا الآن من الاعمال الكلاسيكيـــة ؛ وهما ؛ (تاريخ مسلمي اسبانيا) لدوزي ــ وقد اعـــاد ليڤي بروفنسال صياغته بشكل اساسي ــ وكذلك (تاريخ المسلمين في صِقِلّيَـــة) للمستعرب الايطالي ميكيلي اماري . هذه الاحداث وَقَـــعَ معظمُها في القرون الوسطى الاوروبية ، ولذلك اثارت اهتمام المؤرخين الغربيين ، تحفزهم اليهـــا تقييمات اثارتها اطروحة شهيرة وجديرة بالمناقشة ، كتبهـــا هـ . بيرين ، بعنوان (محمـــد وشارلمان) . وفي هذه الاحداث كلّهـــا كانت مشاركة الباحثين الايطاليين بارزة . ونكتفي بأن نشير منهـــا الى البحوث التي كتبهـــا المستعربون ، لاعتقادنا بعدم المقـــدرة على اعطاء دراسة وافية في هذا الحقـــل .

وكمـــا فعل العرب من قبل في الاراضي الشرقية في آسيا ، كذلك فعلوا في البحـــر المتوسط ؛ فقد وجدوا انفسهم وجهًا لوجه مع البيزنطيين . وفي هذا الموضوع كان (العـــرب والبيزنطيون في البحر المتوسط الاوسط) عنوان البحث القيّـــم الذي يوضح فيه فرانشيسكو غبرييلي اهـــم الوقائع . وهنالك اخبار تاريخية مهمّـــة حول غارات المسلمين علـــى صِقِلّيَة وكالابريا ، وحول الاستيلاء على كاستروجوفانّي عـــام ٨٥٩ ، وعلى العموم ، حول العلاقات العربيـــة البيزنطية في تلك الاراضي فـــي القرن التاسع . هذه الاخبار نجدهـــا في (حياة التديس ايليا الشاب) ؛ وهـــو كتاب يوناني ، تَرْجَمَه وعَلّق عليه احـــد المهتمـــين بالدراسات

البيزنطية ، واسمه ج . روسي طايبّي . وامـا الهجوم على سيراكوزا والاستيلاء عليها ، عـام ٨٧٨ ، فهنالك وثيقة نفيسة حولهما هـي رسالة الراهب تيودوسيو ، التي نشرها لنـا عالِمٌ بالدراسات اليونانية اسمه ب . لافانييني .

وامـا الابحاث المتعلقة باسبانيا المسلمة فليست كثيرة ، بـل هي في الواقع قليلة جـدا . وهذا ايضا حقل دراسيّ طَرَقَه فرانشيسكو غبرييلي في كتابه (رسالة ابـن عبدون النقدية حول حكومة اشبيليا) ؛ وهـو يحتوي على ترجمة ، مـع حواشٍ وملاحظات ، لنصٍّ كبيرِ الاهمية حول الحياة المدنيـة والاقتصادية والاجتماعية في اشبيلية في اوائل القرن الثاني عشر . ثـم تلي ذلك حالا كتابات اخرى لـه ، بعضُها محاضرات ذات مستوى اخباري رفيع ، من مثل (الازدهـار السياسي والاجتماعي في اسبانيا المسلمـة ــ والزراعة العربية في اسبانيا وصِقِلّيَة ــ وعرب صِقِلّيَة وعرب اسبانيا) ، وكذلـك الفصول التي سبق ذكرها بعنوان (مظاهر الحضارة العربية الاسلاميـة) التي نجـد فيها تفاصيل لاكثر المظاهر التاريخية والفنيـة والثقافية الاسلامية ايجابية في اسبانيـا وصقلية . والى تاريخٍ اكثرَ حداثةً يرجع بحثٌ للباحث نفسه بعنـوان (العرب في اسبانيا وايطاليا) ، اهتـمَّ فيه بشكل خاص بدراسـة التنظيمات العسكرية في العهـد الذي كانت فيه البلاد الاندلسية والصقلية جزءا من العالم الاسلامي . وهنـا ايضا ، كما في المؤلفات والابحـاث السابقة ، يتحرّك المؤلـف من فحصٍ زمني للأوضاع في شبه الجزيـرة الايبيرية والجزيرة الايطالية . والاحداث التي ادّت الى ضعف الخلافـة الاموية في اسبانيا ثـم انهيارها في القرن الحادي عشر ، وادّت كذلك الى انجازات مجاهد العامري ــ وهو واحـد من ابرع رؤساء الطوائف ــ نجدها كذلك مصوَّرة في احدى الدراسات الموثّقـة احسن توثيق ، كَتَبَتْها بالعربية المستعربة السيدة كليليـا سارنيللي ــ وسنعود الى ذكـر هذه السيدة فيما بعـد ــ .

ويظهر أن كثيرا من المستعربين والمؤرخين الايطاليين الذين تخصصوا في دراسة مواقف معينة من العصور الاسلامية الوسطى في صقلية ، وفي ايطاليا الوسطى والجنوبية ، شاقهم اسم ميكيلي أمارى وبحثه المتفوق في (تاريخ مسلمي صقلية) . وهو من أهم كتب التاريخ الايطالية في القرن التاسع عشر ، وقد استحق بجدارة أن يعاد طبعه مرة ثانية ، بعناية فائقة من كارلو الفونسو نَلّلينو ، مع اضافة بعض النصوص المختارة اليه . وأما فرانشيسكو غبرييلي فانه ، بعد البحث الاول الذي كان قد كَتَبَه سنة ١٩٣٨ بعنوان (التراث الروماني في ايطاليا الجنوبية والغزوات الاسلامية) ، عاد في فترات متقطعة الى (صِقِلّيَة العربية) — وهذا هو فعلا عنوان احد مقالاته الصحفية القصيرة ، من بين كتاباته المتقدّم ذكرها ، حول اسبانيا المسلمة ، وكلّها ممتع ، يتميّز بعمق التفكير ووضوح العرض — . وأما في ما يتعلّق باحتلال الاغالبة لصقلية ، وما نتج عنه من انعكاسات على الصعيد الثقافي والفني ، فنجد دراسة ممتعة في كتاب (المسلمون في صقلية) الذي ألّفه باللغة العربية المرحوم مارتينو ماريو مورينو ، وجمع فيه محاضرات كان قد القاها في الجامعة اللبنانية في بيروت .

ونجد اومبرتو ريتستانو معنيًّا بالحقل نفسه منذ نحو عقد ونصف العقد ، تَحْفِزُه الى ذلك على الأخص رغبةٌ في الحفاظ ، في صِقِلّيَة خاصةً ، على نوع من الدراسة كان قد أعطاه الحياةَ والقيمةَ العلميةَ المؤرخُ الصقلّيّ ميكيلي أمارى ، الذي سبق ذِكْره مرارا ، اكثرَ مما تَحْفِزُه الثقة في مقدرته على المساهمة في تحسين آثار أمارى الرائعة . ذلك لان النصوص غير القليلة التي خرجت الى النور بعد ذلك ، لم تُزَوِّد المستعربين بموادَّ تَسْمَحُ باجراء تعديلات اساسية على تلك التي كان قد جمعها أماري في (المكتبة العربية الصقلية) . ومن دراسة النصوص التي لم يَطّلع عليها أماري ، ومعظمُها مختارات ، والتي لم تختلف عن تلك التي نُشِرت في (الذكرى المئوية لوفاة ميكيلي أماري) ، استطاع ريتستانو أن يلفت الى نفسه الانتباه ببحث له

عنوانه (مصادر عربيـــة جديدة لتاريخ المسلمين في صقلية) . واهـــمّ ما استوقفه منها تلك المصادر الفاطمية ، وعلى الاخص (سيرة جوذر) لابي علي منصور العُزيزي ؛ وهي وثيقـــة نفيسة ، تلقي الضوء خاصة على وجوه غير معروفة من نشاطات بعض أمـــراء الكلبيين في صقلية ، وصلات جزيرتنا مع الضفة الافريقية المقابلة ، في نحـــو منتصف القرن العاشر . وقد خُتِمَ بحثُه بترجمةٍ بضع صفحات مـــن (السيرة) المذكورة . ومن بعد ذلك ظهرت لهـــا ترجمة فرنسية كاملة ،قام بها م . كانار . وبعد أن كشف ريتستانو هذه المصادر الجديدة ، تـــلا ذلك بنشر بعض تلك النصوص ، وفيها اخبـــار تاريخية لا وجود لهـــا في اي مصدر آخر . ومن هذه نذكر ههنـــا (كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار) للحميري . وهـــو مؤلف جغرافي لم ينشر الا بعضـــه حتى الآن ، والذي نشره ريتستانو منه حتى الآن هو القسم المتعلق بالبَرّ الايطالي وصقليـــة (١) . غير أن هـــذه المصادر المكتشفة ـــ كما قدّمنا سابقا ـــ كانت اهميتهـــا في أنها قدمت لنـــا مقاطع من الشعر ، وبعض السير وأعمال المؤلفـــين ، اكثر مما قدمت لنـــا اخبارا ذات صلة « بتاريخ » المسلمين في صقليـــة . الا ان تلك المعلومات تُكمِل معرفتَنـــا بالثقافة العربية التي نَمَت وتطوّرت في الجزيرة منذ عهـــد الفتح ، واستمرارها في العهـــد النورمندي ، ثـــم في العهد السوابي Svevi . وقـــد استفاد الباحث نفسه من هذه المـــواد في كتابه (الثقافة العربية في صقلية) ، الذي صدر منـــه الجزء الاول فقط ، ومن المؤسف انـــه لم يكمل بعد بالجزاين الثانـــي والثالث اللذين كان المؤلف يعتزم اصدارهما . ونحـــن نذكر هذا الكتاب ههنا لان في الفصلين الخامس والسادس منه دراسة سريعة حـــول الازمة الفاطمية في المغرب وصقلّية في القـــرن العاشر .

في أعمـــال فرانشيسكو غبرييلي ، ومارتينو ماريو مورينو ، وأومبرتو ريتستانو المتقدم ذكرها ـــ وكلّهـــا تستلهم آثـــار ميكيلي اماري ـــ يعيش المـــرء من جديد مع لحظات بارزة من احداث امتدت ـــ من الوجهـــة

---

(١) الكتـــاب كاملا حققه الدكتور احسان عباس ، وتولت نشره مكتبة لبنان ، في بيروت ، سنة ١٩٧٥ (ع . ن .) .

التاريخية الصرف ــ مــدة اقل من قرنين ونصف القرن ، غير ان آثارها ، في جوانب اخرى ، استمرّت في صقلّية الى عهــد فريدريك الثاني ، وفــي ايطاليا الجنوبية كانت نهايتهــا الحاسمة على يدي الملــك السوابي كارلو الثاني دانجو ، الذي قضى على العناصر العربيــة في لوشيرا ، واضطرّ العناصر الاسلامية الباقيــة في صقلّية الى الهجرة . والوثيقــة العربية الوحيدة التي وصلت الينــا حول هذه الحادثة هي (تسجيل العر بــ لريكّاردو دي لوشيرا) وقــد نشرها ليفي ديلا ڤيدا بعد ان قــام بترجمتها وتعليق الملاحظات عليهــا .

واما صقلية النورمندية والسوابية في صلاتها بالعالم الاسلامــي في افريقيا وآسيا ، وكذلك انماط حياتها المتعدّدة وفكرها العربي الــذي استمر في ذلك العهــد ، فنجد صورة لهــا في سلسلة من الابحــاث التاريخيــة والثقافية التي كتبهــا فرانشيسكو غبرييلي ، وأومبرتــو ريتستانو : الاول منهما نذكر لــه (سفارات بيبرس ومانفريدي) ، ويليه حالا لاومبرتو ريتستانو مقالان باللغــة العربية بعنوان (النورمنديون والعرب في صقلّية) ، وهمــا يدوران على علاقات النورمنديين والزيريين في افريقية ، وعلاقات غوليلم الثاني وصــلاح الدين . وقد عهدت وزارة التعليم الايطالية الى هذيــن الباحثين بالاشراف على نشر اعمال ميكيلي اماري واوراقه . وكانت هذه المهمــة تقتضيهما واجب العناية بالطبعة الثانية من (الدراسات القديمة) و (المكتبة العربية الصقلّية) نصوصــاً وترجمات . واما النورمنديون الذين وطّــأ لهم الاميرال جورجيــو الانطاكي السيطرة على افريقية مــدة عشر سنوات ، وكذلك الموحّدون ، وهــم القوة السياسية والدينية الجديدة التي قضت على التحصينــات المسيحية في افريقيا ، فنَجِــدُ حولهم اخبارا موثّقة في (تاريخ طرابلس وليبيــا) لإيتّوري روسّي ؛ وسنعود الى ذكره في ما بعــد . وحول الاسرة الملكية المذكورة ، ولا سيمــا اخبارها التي وصلت الينــا من المؤرخ الدمشقي ابــن القلانسي ، كتب فرانشيسكو غبرييلي (اصول حركة الموحدين في مصدر تاريخي شرقي) . وتعود بنــا الذكريات الى

الاحداث التاريخية في صقلية في عهد الكلبيّين ، والعهد النورمندي خاصة في كتاب (باليرمو حسب الجغرافيين والرحالين العرب في القرون الوسطى) للسيدة ادالجيزا دي سيمونه ، وكان هذا البحث رسالة قَدَّمَتْها لنَيْل شهادة الدكتوراة الى كلية الآداب في جامعة باليرمو ، حيث يقترن تعليم اللغة العربية في وقت واحد بالدراسات العربية الصقلّية .

وبعد وقفتنا القصيرة هذه عند صقلّية ، نلتفت الآن الى شبه جزيرتنا ، فنتذكر أن الغزوات العربية المتعددة للبَرّ الايطالي ، قد تحدَّث حولها أومبرتو ريتستانو في بحثه (العرب في ايطاليا) . وقد خَصَّص القسم الاول منه لرسم صورة سريعة شاملة لفتح صقلّية . وكذلك فرانشيسكو غبرييلي في أكثر من بحث واحد ، ولا سيما في مثل دراستيه (العرب في كالابريا) و (مدينة باري العربية) ؛ وكذلك في بحثين آخرين أكثر جدية وأوسع إحاطة من حيث الزمن والرقعة ، وهما : (سالنتو والشرق العربي) و (العرب في أوروبا : اسبانيا وفرنسا وايطاليا) ؛ وهذا الاخير فصل من كتاب للمؤلف عنوانه (محمد والفتوح العربية الكبيرة) .

وحول وجود العرب المشار اليه آنفا في الاراضي الايطالية الوسطى والجنوبية ، وأعمالهم الحربية المتواصلة ، الى حدّ ما ، وما كان يتبعها من فرضهم الجزية ، اضيفت الى جهود المستعربين جهود اخرى قيّمة ، في الغالب ، من بعض المعنيين بدراسة العصور الوسطى . وينبغي أن نحدد أن جهود هؤلاء قد عُنيت باعادة بناء صورة الاحداث المشار اليها ، وما رافقها من الاعيب اللومبارديين والبيزنطيين السياسية التي عاصرتها . وكانت هذه الأعمال أقرب الى الصحّة في ما يتعلّق بالفئة الاولى ، لان المصادر اللاتينية ، رغم ما فيها من نقص وعدم دقة من حيث صحة الوقائع ، كانت أقل توزُّعا وتشتّتاً من المصادر العربية ؛ ففي هذه المصادر لا نجد في الغالب أثرا لاعمال العرب في البَرّ الايطالي . وبالرجوع الى المصادر اللاتينية — ويندر أن نجد

في المصادر العربية ما يطابقها او يكملها ــ استطاع ج . موسكا ، العالم بتاريخ العصور الوسطى ، أن يعيد بناء تاريخ الاعوام الخمسين التي كانت فيها مدينة باري عاصمة لدولة اسلامية مستقلة ، وإن يكن قد اعطانا تقييمات غير تلك التي أَلِفْناها . وقد استطاع أن يصوِّر فيما بعد غروب تلك الدولة النهائي في بحث لاحق . ومن الواضح أن وجود العرب في صقلّية وفي ايطاليا ، وعلى الاخص في سالنتو ، قد أشار اليه مؤرخون من أمثال ل . سبلفاتوريللي ، و م . سكيبا ، و ج . بوكيتينو ، و س . ج . مور ، و إي . بونتيري ، و ن . تشيلينتي ، و ج . بيتروني ، وغيرهم ممّن نجد ذكرا لاعمالهم لدى موسكا ، مصحوبا براي مدروس حول قيمتها في ما يتعلّق بمدينة باري .

ان الغزوات العربية لشواطىء البحر التيريني الايطالية تُدْخِل في تاريخ العصور الوسطى كبرى الجزر في ذلك البحر ، وهي جزيرة سردينيا التي كان المسلمون يغزونها إمّا من افريقية ، وإمّا من جُزُر الباليار . وكانت جنوا وبيزا بشكل خاص منهمكتين دائما في صدّ هذه الغزوات . ولقد قامت منذ نحو قرن من الزمان محاولةٌ لاعادة بناء وقائع هذه الغزوات ، بشكل خيالي ، فيالواقع . والذي قام بذلك هو ب . مارتيني ، الذي « أعمَتْه الغيرة الوطنية ــ كما يقول اماري ــ فلم يفطن الى ما يحوم من شكوك حول أصالة الوثائق التي استند اليها في بحثه » . وبعد أكثر من مئة سنة من ظهور ذلك البحث الذي لا قيمة له ، قامت السيدة كليليا سارنيللي باعطاء صورة وافية لتلك الفترة التي كانت فيها سردينيا تحت تهديد مباشر من أسطول مجاهد العامري الجبّار . وقد فعلت ذلك في فصلٍ رائع التبويب من الدراسة المذكورة آنفا ، والتي ظلّت ، مع الاسف ، بعيدة عن متناول علماء العصور الوسطي . وقد قُدِّمت هذه الدراسة الى كلية الآداب في جامعة القاهرة لنيل شهادة الماجستير ، ثم قامت بنشرها بالعربية ، كما ذكرنا آنفا . وفي موضوع سردينيا عينه والاعمال التي قام بها المسلمون فيها ، ظهر ايضا بحث للسيدة لاورا ثيتشا ڤاليري ،

استاذة كليليا سارنيللي ، كأنما كـــان الدافع اليه دعـــم تلميذتها في مجال بحثها عينه . ويتجدد الاهتمام بسردينيا (العربيـــة) في بحث بالفرنسية عنوانه (آثـــار عربية في سردينيا) ، يرى فيه المؤلـف جوفانّي أومان انـــه لن يمكن القاء ضوء جديد حول تلـــك الغارات العربية الا بعد دراسة آثارية كاملة للجزيرة ، تكون نتيجـــة حُفْريّات منظمة فـــي مناطق معينة . اما المـــواد القليلة التي يضمّها متحف كالياري فليســـت كافية لأي اثبـــات .

• • •

الحـــروب الصليبيـــة :

وعهـــد الحروب الصليبية الذي اصطدمت فيـــه المسيحية بالاسلام في بلدان الشرق الادنى الافريقية والآسيوية ، حيث كانت جذور الاســـلام متأصلة اكثر من سواهـــا ؛ لقد تعدّدت بحوث علمـــاء العصور الوسطى حولها ، ولكننا نكتفي بأن نذكـــر من أحدثها : (تاريخ الحروب الصليبية) للمؤلف ف . كونياسّو . وامـــا المستعرب الاول والاخير حتـــى الآن الذى التفت الى المصـــادر العربية ، لكي يرى تلك الحروب بعـــين الخصم حينذاك ونفسيته ، فهو ايضا فرانشيسكو غبرييلي ؛ فقـــد اكتشف مجموعة من المختارات البارعة لاشهر مُدَوِّني الاحداث العـــرب ، ممن نَقَلوا الينـــا اخبارًا وانطباعات ، اغلبُها ذو اهميّة تاريخية كبرى ؛ وقـــام بترجمتها الى اللغـــة الايطالية وتحقيقها . ومن هذه المجموعة الكَشْفة وُلِدَ كتاب (مؤرخو الحروب الصليبية العرب) ، الذي يستحق عليه غبرييلي اعظم الثناء لدقّتـــه اللغوية ، وفخامة عبارته النثرية . وبهذا الكتاب فَعَل المؤلـــف ما كان قد فعله قبل عـــدة اعوام حينما نَشَر كتابه (فرسان القديس يوحنا لدى مؤرخي الحروب الصليبية العـــرب) ، اذ اتاح للزملاء من غـــير المستعربين فرصة الوصول الى اكثر المصـــادر اصالةً في (الكتابة التاريخية العربية للحروب الصليبية) ـــ وكان هـــذا عينه موضوع مقال لاحِقٍ لـــه ـــ وإن لم يكن السرد متتابعا في الدراسة ، فلقد كان غريبا في الاغلب على المؤرخين ومدونـــي الحوادث المسلمين .

وفي رقعة الشرق الادنى عينها ، حيث كـان يتأجّج العداءُ بين المسيحيين والمسلمـين ، يُدْخُل بحثُ (العالَم الاسلامي في زمـن فريدريك الثاني) ، وهو بحث كتبه ليفي ديلا ڤيدا ، مركّزا فيـه بشكل خاص على لمحـة سريعة من سلسلة الاتصالات والعلاقات بـين المسيحيين والمسلمين ، الذين عاشوا افضل أوقاتهـم فعلا مع ذلك الامبراطور السوابـي .

• • •

عهـد الركـود :

والعهـد الذي يأتي مباشرة بعد سقوط خلافة بغداد عـام ١٢٥٨ ، يسجّل بداية ركود بطيء، ولكنه مستمر، في العالم العربـي . ويزداد الركود ــ او الانحطاط ــ تأكدا منذ بدايـة القرن السادس عشر ، بسيطرة العثمانيين على البحـر المتوسط الشرقي والاوسط . منذ ذلـك النصف من القرن الثالث عشر كان المماليك اهـمّ صُنّاع التاريخ الاسلامي واستمرار العروبة مـدّةَ قرنين ونصف القرن . وظلّت مصر مُرْكَـز الاسلام والعروبة ، مثلما كانت كذلك في العهـد الفاطميّ والعهد الايوبـيّ الذي جـاء بعده . والجهد الايطالي الوحيد لمعرفـة البروتوكول الجافّ والمعقـد الذي كان سائدا في ادارة الحكم المملوكي ، هـو بحثٌ بعنوان (مرسوم تعيين الى نيابـة طرابلس ، في سوريا ، من السلطان المملوكي خُشْقَدَم ، ١٤٦١ ــ ١٤٦٧) ، وفيـه نَشَرَتْ المستعربةُ الشابة ريتـا روزي دي ميليو الوثيقة العربيـة ، مشفوعة بتعليق تاريخي توضيحـي . واكثرُ من ذلك كانت الابحاثُ المتعلقـة بعلاقات سلاطين المماليـك مع بعض المـدن البحرية الايطالية ، ولا سيما البندقية . وكانت هـذه العلاقات ، قبل أن تقـوم في شرقيّ البحر المتوسط اكبر دولـة معادية لهـم ، هي الدولة التركية ، قد نَمَّت علاقاتِ تبادلٍ تجاري واسع مـع من سبقهم في السيادة على ذلك البحـر . واما العلاقات مع البندقية ــ وقد عَرَض لهـا غبرييلي بنظرة شمولية في مقال لـه بعنوان (البندقية والمماليك) ــ فان الكشف الذي قامت بـه ماريا نَلّلينو على (مذكرات مارين سانودو) سيكون عونـا ثمينا لمعرفتها . واهمية هذه المذكـرات

هي في كونها وثائـــق تعكس العلاقات وغيرُها ممّا سَبقها . وقد كشفت ذلك ماريا نَلّلينو في بحثها (مصر منذ وفـــاة قايت باي الى مجيء قانصوه الغوري ، ١٤٩٦ ــ ١٥٠٥ ــ في مذكرات مارين سانودو) . وكانـــت للدوقيّات مصالح مع تونس كذلك منذ القرن الثالث عشر ، حينما بـــدأ في افريقية حكـــم السلالة البربرية الحفصية . وفي هذه العلاقات يتحدث ا . ساتشردوتي حديثا واسعا في بحث لـــه عنوانه (البندقية ومملكة الحفصيين في تونس : معاهدات وعلاقات دبلوماسية ــ ١٢٣١ ــ ١٥٣٤) . وسنعود فيما بعد الى ذكـــر اسم هذا الباحث من جديـــد .

ان الاشـــارة الى العثمانيين باعتبارهم قـــوة جديدة في البحر المتوسط تقودنا الى ذكـــر كتاب (فخر الدين الثاني ، امير لبنـــان ، والبلاط التوسكاني ، ١٦٠٥ ــ ١٦٣٥) ، وهـــو جزآن نفيسان قَـــدَّم فيهما ب . باولو صورة موثّقة اوسع توثيق لجميـــع الاحداث التاريخية والدبلوماسية التي كان بطَلَهـــا ذلك الاميرُ الدرزي ، وكان مسرحها لبنان تارة ، وتارة أخرى بـــلاط الغراندوق كوزيمو الثاني التوسكاني ، الذي كان يبدو أن حكّام البندقية والاتراك معـــًا يكرهونه : فقد كان البندقيون مشغولين بمنازعة التوسكانيين على السيادة في الشرق ، مثلما كـــان يثير الاتراك ان يجـــد ذلك الاميرُ المغامر في صِلاته ببلاط آل ميديتشي ما يدعم نفوذه وسلطانه . وامـــا مصر العثمانية فيعيدنا اليها مقال بعنوان (تاريخ علـــي بك المصري ، ١٧٦٣ ــ ١٧٧٣ ــ في مخطوط للمؤلـــف ج . م . ديجون) يوضح فيه إيتّوري روسّي ، استنادا الى مصـــدر نفيس غير منشور ، حياةَ ذلك الرجـــل المغامر ومنجزاته الثورويّة ، وظهوره على المسرح السياسي المصري مـــدى عشر سنوات ، محـــاولا فصل مصر عن سلطان العثمانيين ، ومستفيدا في مطامحه تلك مـــن الحرب التي نشبت بين روسيا وتركيـــا .

• • •

في البحـــر المتوسط :

جـــاء ظهور العثمانيين في البحر المتوسط ، وما تلاه من تأخر العرب اللغوي والثقافي ، في وقت واحـــد مع تأليف الحكومات البربرية فـــي المغرب . وقد اهتـــم بجمع الوثائق الوفيرة حول هذا الحدث مستعربون وغيرهم ، وكتبوا فيه أبحاثا واسعة . واحدى الوثائق التي لا شـــك في اهميتها ، والتي يمكن ان تُطْلِعَنا على أعمـــال القرصنة المريعة التي جَرَت في أوائل القرن السابع عشر ، هي في تقرير حول الجزائـــر وتونس ، قدَّمـــه الى دوق البندقيّة ج . ب . سلفاغو — وكان هذا كاثوليكـــيّ المذهب ، تركيّ التبعية ، وكان قد أُرسِل في مهمّـــةٍ خاصة الى تينـــك المدينتـــين سنة ١٦٢٥ . وقد اهتـــمّ بنشر تلك الوثيقة ا . ساتشردوتي في كتاب لـــه عنوانه (افريقية ، أو بلاد البربر) يُعْتَبر جهدا نفيســـا يساعد على معرفة تلك الفتـــرة التاريخية الحاسمة التي تقـــلّ فيهـــا الاخبار . أمـــا الاعادة الكاملة لبنـــاء تاريخ البحر المتوسط في القرون التي كان فيها ذلك البحـــر يعجّ بالرعب القاتل الذي زرعه القراصنـــة ، والمتاجرون بالعبيد ، فقد عني بهـــا س . بونو ، مؤلف كتاب (القراصنة والبربر) . في هذا الكتـــاب الذي استقبله النقاد بالثناء الواسع ، نجـــد دراسة دقيقة لتلك الاحداث التي تُعْتَبَر بين اشرس الاحداث في تاريـــخ الانسانيـــــة .

والـــى تاريخ البحر المتوسط في القرون الوسطى وفي العصـــر الحديث ، سرعان ما تنبَّـــهَ الاهتمامُ التاريخي لدى المستشرق إيتّوري روسّي ؛ وكان هذا من كبـــار المعنيّين بالدراسات التركية من المستعربين ، وقد ساعده ذلك اكثر من سواه على ان يُعْنَى باللقاء الذي تـــمّ بين عالَمَيْن مختلفين في ذلك البحـــر ، ليقوم بدراسة بعض أحداثه استنادا الـــى وثائق مزدوجة . ومن ابرز الادلـــة على ذلك مؤلفاتُه النفيسة التاليـــة : (حكـــم فرسان مالطة في ليبيا ، ١٥٣٠ — ٥١) و (صلات جمعيـــة الفرسان بطرابلس الغرب في القرون اللاحقـــة ، ١٥٥١ — ٩٨) و (المراسلات بين كبـــار معلمي جمعية القديس يوحنا في مالطـــة وبايات

طرابلس ، من ١٧١٤ الى ١٧٧٨) و (والصلات بين كبـــار معلمي جمعية مالطة وبايات تونس ، مـــن ١٦٤٢ الى ١٧٥٦) ــ الكتابان الاولان منهما أسبق من سواهما ، وهمـــا من أوسع مؤلفات روسّي حول طرابلس الغرب وأراضيه ، التي سنشير اليها فيما بعـــد .

في السجلات الحكومية في المـــدن الايطالية التي كانت لهـــا ، لاسباب مختلفة ولا سيما الاسباب التجارية ، صِلاتٌ مع بعض البلـــدان العربية في المشرق أو في المغرب ، وقد نجـــد وثيقة هنا وأخرى هناك ، تُلقي ضوءًا على تلك الصلات . ومن ذلك مجموعة من الرسائل نشرتهـــا ماريـّـا نَلّينو بأصلها العربي وترجَمَتِها الايطالية ، وَقَدّمت لهـــا بمقدمة تاريخية ، وعلّقت عليهـــا تعليقاتٍ وملاحظاتٍ واسعةً في بحث لهـــا عنوانه (وثائق عربية حول العلاقات بين جنوا ومراكش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر) . ويبـــدو أن هناك كثيرا من الوثائق المأخـــوذة عن السجلات بلُغاتٍ مختلفة ، غير اللغـــة العربية ، استفاد منهـــا بعض الباحثين الايطاليين ، ممن لم يكونوا دائما من المستعربين ، في اعمالهـــم الرامية الى معرفة العلاقات بين الحكومات الايطالية قبل الوحـــدة ، والدول البربرية في الجزائـــر وتونس وطرابلس الغرب . وفي هـــذا الصدد ، ودون الاقتصار على تونس وحدهـــا ، كما أشرنا سابقـــا ، قـــدم لنا س . بونو مقارنات واسعة في بحثه (مصادر ووثائق ايطاليـــة في تاريخ تونس) . والاهتمام المتجدد الذي نَـــوَدّ أن نشير اليه ههنا ، والذي تثيره تلك العلاقات التي ترجع الى عهود متأخرة عن تلك التـــي درسناها آنفا ، بـــدأ بمقال للسيده لاورا ڤيتشا ڤاليري ــ اذا لم تَخُنّـــا الذاكرة ــ عنوانه (وثائق ڤاتيكانية تتعلّق بالجزائر ــ ١٨٢٥ ــ ١٨٣٠) تَلتْه بعد مـــدة قصيرة دراسة حول العلاقات بين (الكرسيّ الرسولـــيّ والبربر ، ١٨١٤ ــ ١٨١٩) . وقد اضيف اليـــه بعد بضع سنوات بحث بعنوان (علاقات غراندوقيّة توسكانا مع دولـــة تونس ، ١٨١٨ ــ ١٨٢٣) ، كتبـــه أ . ريجّيو ، وكذلك (سردينيا ودول البربر ، مـــن ١٧٩٤ الى ١٨١٥) للمؤلف اي . بوسّي ، ثـــم (علاقات اسبانيا وسردينيا مع دول البلدان البربرية ــ ١٧٧٨ ــ ١٧٨٣) لـــه ايضا .

وعلى الرغم من انـــه ليس من قصدنا ان نمضي في تدوين جهـــود الباحثين الايطاليين الرامية الى معرفة تلك العلاقات مـــع دول البربر ، فانه يبدو واجبًا علينـــا ان نَذْكُر ان كثيرا من العلماء المتخصصين بالعصور الوسطى والمؤرخين قد قاموا بأبحاث في هذا الحقـــل ، مستندين في الغالب الى اكتشافات واسعة لوثائـــق مستَمَدَّة من السجلّات . ومن هـــؤلاء الباحثين نذكر : ج . كابونين — و ج . ڤيدوڤاتو — و ر . تشيسّي — و ا . غالّيكو ؛ كما نذكر ، بالنسبة الى ايطاليا الجنوبية وصقلّية فـــي نطاق السياسة في عالـــم البحر المتوسط : ج . لامانتيا — و ج . مونتي — و تشي تراسّيلّي — و ف . جونتا . ونحن حين نذكر هؤلاء ، ليس لنـــا من قصد غير الاشارة الى الاتجاهـــات ، وكذلك المواقع المتعلّقة بجـــزء من كتابة التاريخ الايطالية خلال الاعـــوام الخمسين الأُخيرة بالنسبـــة الى تاريخ البحـــر المتوسط .

• • •

/ القـــرن التاسع عشر :

بالقـــرن التاسع عشر — وهو نقطة الوصول ، بالنسبة الـــى هذه المراجعة السريعة-تنتهـــي فترة الركود ، او الانحطاط ، في العالم العربي ، وتبـــدأ بعد ذلك فترة التحرّر التدريجي مـــن السيطرة العثمانية المسؤولة مسؤوليةً مباشِرَة عـــن استنزاف المقدرة على التطوّر لـــدى شعوب الشرق الادنى ، والمغـــرب ، نتيجة للمناخ الاداري التركـــيّ المرهق الذي استمرّ اكثر من ثلاثة قرون . وفي هـــذه اليقظة يساهِمُ الغرب بوجوده في مصر في نهايـــة القرن الثامن عشر ، بحملة نابوليون ، التي وضعت أمـــام العرب مثاليات تختلف كلّ الاختلاف عمّا عرفـــوه في الماضي القريب الجديب ، وتدفعهم الى الاخذ بأسباب الوعي القومي ، تمهيدا لقيام الحركات الثائرة ابتـــداء من الحرب العالمية الاولى . وكـــان بعض البلدان العربية ، منـــذ بداية القرن التاسع عشر ، قد اتّجَـــه الى الخروج من الحكـــم العثماني الذي استمر أكثر من ثلاثة قـــرون ، ليصل الى استرداد بعض ملامحـــه القومية الاصيلة . ولذلك نرى من

الانسب والانفع من جميع الوجـــوه ختام القسم الاخير من هذه المراجعة ، مكتفين بذكر جهـــود الايطاليين العلمية في بعض الحقول الفرديـــة .

مـــن السهل الحدس أن الفرنسيين قد ساهموا مساهمة جليلـــة في كتابه تاريخ البلدان المغربيـــة المختلفة،منذ عهد الفتح العربـــي حتى الاحداث السياسية المعقدة التي انتهت هنالـــك بالاستعمار الفرنســـي للجزائـــر وتونس ، والاستعمار الفرنسي والاسباني للمغرب . وأمـــا جهود الباحثين الايطاليين فيما يتعلّق بتاريخ المغـــرب ، وعلى الاخص في الوضع الاداريّ في تلـــك المناطق الثلاث (الفرنسية ، والاسبانيـــة ، والدولية) فنذكر منهـــا ، للأهمية ، كتاب (تقسيم مراكش ــ احداثهـــا السياسية والدبلوماسية) للباحث س . نافـــا ــ ولو ان هذا الكتاب ينتمي بشكل خاص الـــى القرن العشرين ، وليس من اختصاص هـــذه الدراسة ــ وأمـــا في التاريخ الحديث ، أو على الاصح في فترة تاريخيّة محددة منه ، فنذكر (اسبانيا والمغرب ، ١٨٤٤ ــ ١٩١٢) للباحث أ . فيستا ؛ وكذلك كتاب (وجها المغرب) للمؤرخ م . جامبيرو ، وهـــو اكثر تحديدا . وحول الجزائر ــ والذي لدينا عنها قليل ــ نذكر (الحرب الجزائرية التونسية عـــام ١٨٠٧ ، في مذكرات دبلوماسي هولنـــدي) . وهناك كتاب آخـــر شامل هو (تاريخ الجزائر للمؤرخ ر . راينرو ، الذي أولى اهتمامه أيضا للحركة الوطنية الجزائرية . وأمـــا التزامات فرنسا في شمالي افريقيا فقد خصص لهـــا ف . دي لويجي كتابا . وأمـــا الاستعمار الفرنسي لافريقيا الشمالية ، والتدخّلات ذات الطابـــع الدبلوماسي ، التي سبقتها ورافقتها وتلتهـــا مؤسسات سياسية واجتماعية ودينيـــة في كل البلدان الاربعة (الجزائر ، وتونس ، ومراكش ، وليبيا) ، والتغيّرات التي جرت على اثـــر اتصالها بالغرب ، فاننا نجـــد لها كلّها تصويرا وافيا في كتابين قيّمين للمؤرخ اي . دي ليوني . وقـــد استفاد المؤلف الى حـــد كبير ــ فيما يتعلق بمراكش خاصة ــ ومن وثائـــق جديدة عُثِر عليها في السجلات الحكومية في جنـــوا ، وليفورنو ، ونابولي ، وتورينو . وهـــذا الباحث عينه كان من قبل قد وضع كتابـــا حـــول

(سياسة الوطنيين في افريقيا الشمالية الفرنسية) ، ومقالا حول (مشكلة الوطنيين ومشاكل اجتماعية في الجزائر) . واكثرُ عددا مما تقدم كانت كتاباتُ الباحثين الايطاليين حول تونس .وكان بعضهم مدفوعا بعامل « المدافعة » عن ازمنة أخرى ، فلم يكن من الممكن تقييم اعمالهم هذه تقييما مجردا . وكان بعضهم الآخر يتميّز بالاتزان المرموق ، لتَجَرُّدهم عن التعصّب « للقضيّة الايطالية » التي طُرِحَت خلال الحرب العالمية الثانية . ومن المنطقيّ ان يكون القُطْرُ المغربي الذي ازدادت فيه اهتمامات مستعربينا ومؤرّخينا ، هو ليبيا ، وعلى الاخص طرابلس الغرب . وفي تاريخ هذا البلد من الفتح العربي (٦٤٢) الى الاحتلال الايطالي (١٩١١) ترك لنا ايتّوري روسّي عملا رائعا لاعادة بناء هذا التاريخ . وقد اكمل كتابه هذا عام ١٩٢٨ تقريبا ، ولم يُنْشَر الا بعد وفاته ، منذ بضع سنوات فقط (١) . وهو أوفى كتاب وادقُّه في هذا الموضوع — وهو في القسم الحديث منه يقوم بديلا عن كتاب (طرابلس الغرب من عام ١٥١٠ الى ١٨٥٠) للكاهن الفرنسيسكاني الاب كوستانتسو دابيرنيا ، ويضيف اليه تحسينات قيمة — وقد استند في كتابه هذا الى العديد من المصادر العربية والتركية ، مع دراسة نقديّة واسعة لها ، كما رجع الى وثائق وسجلّات غير منشورة . فجاء كل فصل من فصول الكتاب التسعة عشر تصويرا وافيا مُشْبَعًا ، وقائما على تفكير عميق في الاحداث التاريخية ، والتاريخية السياسية خلال ثلاثة عشر قرنا . ولم يُعْنَ بالتعميمات ، بل اعتَمَدَ دائما اعتمادا دقيقا على النصوص . والذين عرفوا ايتّوري روسّي معلّمًا لهم — كما عَرَفَه كاتبُ هذه المراجعة — يشهدون شهادة امينة بعدائه لكلّ شكل من اشكال الحلول الوُسطى بين البحث العلمي الجادّ والهواية الارتجالية .

---

(١) قسام الاديب الليبي خليفة التليسي بترجمة هذا الكتاب الى العربية ، ونشره في بيروت ، سنة ١٩٧٤ (ع . ن .) .

ان الاشارة الى المصـــادر العربية التي استُمِدَّ منها الباحث المذكور مـــوادّه الاولية لتاريخ ليبيـــا هذا ، ولعدد آخر من الابحاث ، يحدونا الى ان نذكر ــ حتى قبل هـــذه الابحاث ــ ترجمته الدقيقة لكتـــاب (تاريخ الوقائع العربية الليبيـــة ، لابن غلبون) وما عَلَّقه عليه مـــن هوامش وملاحظات . وهذا الكتاب ينفرد من بين المصـــادر العربية الاخرى لتاريخ ليبيـــا ، ليس فقط بامتداده الى سنة ١٧٣٢ ، بـــل باشتماله ايضا على اخبـــار لا توجد في سواه ، حول الحياة الفكريـــة المحلّيّة ، ابتـــداءً من الحكم العثماني . ونرى من لغـــو القول تأكيد أهمية الخدمة التي قدمهـــا روسّي للباحثين من غير المستعربين في تاريـــخ ليبيـــا ؛ فقد كانت ترجمته للكتاب المذكور من اهـــم المراجع في تاريخ ليبيـــا . ومن سلسلة كتابات هذا الباحث حول ليبيـــا ، وهي تؤلف حقلا خاصا في انتاجه الضخم النفيس ، نشير كذلك الى كتاب لـــه حول (فَزّان وواحة غات) ، والى صورة سريعة مـــن (تاريخ ليبيا مـــن الفتح العربي الـــى سنة ١٩١١) حيث تعطينا لمحـــة موجزة ، حسنة الشرح ، حول ذلك التاريـــخ .

هنالـــك صَفٌّ كثيف من الباحثين الايطاليين الذين قرنوا اسماءهم بمشاركات في الموضوع عينـــه . ومن بين هؤلاء يجدر بنـــا أن نذكر كذلك ر . ميكاكّي ، الذي كَتَـــبَ بحثًا تاريخيًّا حول (طرابلس وليبيـــا قبل الاحتلال الايطالي) وكتاباً بعنوان (ليبيـــا تحت حكم آل قَرَمَنْلي) . وآل قرمنلي هـــم اسرة اهتم بها كذلك مِنْ بَعْدِه الاب كوستانتسو بيرنيـــا ، الذى تَقَدَّم ذكره . ولاجل وضع الكتاب المذكـــور ، استعان ميكاكّي ــ وكان موظفا كبيرا في الادارة الاستيطانيّة حينئـــذ ــ بموادّ وفيرة غير منشورة ، كانت متوافرة في السجلات الاوروبية ، وتتعلّق بليبيـــا تحت حكـــم الاسرة القرمنلية (١٧١١ ــ ١٨٣٥) وقد جـــاد بوضعها تحت تصرفه ب . توسكي ، وكان قد وضع لهـــا كشفا غنيًّا بعنوان (المصـــادر غير المنشورة في تاريخ ليبيـــا) . وهناك اشارات اخرى الى الوثائـــق المحفوظة في السجلات الرسمية قَدَّمَها بعدئذ س . بونـــو . وهنالك

عـــدد كبير آخر كبير من المؤلفـــات حول تاريخ ليبيـــا نترك ذكرها للمقدّمة التي وضعها روسّـــي لكتابه (تاريخ طرابلس) ولمـــا الحقه من اضافات ببليوغرافيّـــة بمختلف الفصول . واما ما لـــه صلةٌ مباشرة بالسنوسيّة ــ وكانت هـــذه قد دَخَلتْ منذ منتصف القرن الماضي دخـــولا بارزا في الاحداث التاريخية في بُرْقَـــة وطرابلس ــ فنتركها الى الاشارات الببليوغرافية التي تضمّنَتْها كتاباتُ كارلـــو نَلّلينو ، والبيتّـــي حول هذه الجماعـــة الدينيـــة .

• • •

اسرة محمـــد علي :

وناتـــي الآن الى محمـــد علي ، راس الاسرة التي حكمت مصر الى عـــام ١٩٥٢ ، والرجل الذي كان،بإجماع الآراء،معيدَ مجـــد مصر بعد سقوطها في اوائـــل القرن الماضي في حالـــة من الفوضى ، كانت الحملـــة النابوليونية قد خفّفتْ من حِدّتها آنيّـــا فقط . لقد كانت جهود الباحثين الايطاليين حوله كبيرة ، غـــير أن القليل منها ذو قيمة حقيقية جديـــرة بالتقدير . ومن بينها جميعـــا تتميز اعمال ا . سَمّارْكو ، الذي عُهِـــد اليه الملـــك فؤاد الاول بتكملة الوثائق الدبلوماسية الايطالية المتعلّقـــة بمُلْـــك محمد علي ، ودراستها ونشرها . وكـــان اي . غريفّيني قـــد بـــدأ بجمع هذه الوثائق وادارتها ، وهـــو مستشرق متخصّص بالدراسات التركية ، كان قد استُدعِيَ الـــى القاهرة ليتولّى ادارة مكتبـــة القصر الملكي . ومن هذه المجموعة النفيسة غير المنشورة وُلِـــدَ القسمُ الأهمّ والأكثرُ اصالة من انتـــاج سَمّارْكو التاريخيّ المتعلق بمصر الحديثة ، ومن ابرزها : (رحلة محمـــد علي الى السودان ، من اكتوبر ١٨٣٨ الـــى ١٥ مارس ١٨٣٩)؛وكتاب (مملكة محمـــد علي في الوثائق الدبلوماسية الايطالية غير المنشورة) باجزائه الأحد عشر . لاجـــل هذه الكتب ، وغيرها مما تلاها ، قـــام المؤرخ بفحص قسم كبير من الوثائق العشرة الآلاف المحفوظة في السجلات الحكوميـــة في نابولي ، وفلورنسا ، وتورينو ، والبندقية ، وفيينّـــا ، مدقّقًا ومقارِنًا بينها ، ومستخلصا منها حقائـــق

وتقييمات تاريخية جديدة كـل الجدَّة بالنسبة الى تلك التي كانت تتميَّـز بهـا الكتابات التاريخية الشرقية والغربية حينذاك ، بسبب نقص الوثائق الصالحـة .

ومـن المؤسف أن اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ووفـاة الباحث بعدئذ ، كانا السبب في عـدم انجاز العمل في عدد آخر من الاجـزاء التي كانت متوقَّعة لهذا الكتاب ، عـدا الاجزاء المنشورة منه . ولقد كان سَمَّارْكو كذلك مؤلِّفًـا للجزء الرابع من الكتاب الفرنسي (موجـز تاريخ مصر) حول مُلْـك عباس ، وسعيد ، واسماعيل ؛ وكذلك المجلـد الثالث من كتاب ذى خمسة مجلدات ، تبـدأ من أوائل القرن التاسع عشر ، وتصل الى الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ ، وكذلك (مُلْـك الخديوي اسماعيل ، من ١٨٦٣ الـى ١٨٧٥) باللغـة الفرنسية . وهذه كلّها اعمال انضجتها الدراسة الجاهدة للوثائـق المنشورة وغير المنشورة ، المتعلقة بالقرن التاسـع عشر مـن التاريخ المصري .

وفي هـذا القرن نُجِدُ تمهيدات لِحوارٍ مع أوروبـا ، كان قد بـدأ من قَبْلُ في زمن محمّـد علي ، واستأنفه من بعده خلفاؤه بكثير مـن الاهتمام ، مما ساهم في وضـع مصر على راس البلدان العربية ، في الحقل السياسيّ ، والسياسيّ الثقافيّ ، وبمحمد علي يُخْتَمُ كتابُ (تأسيس مصر الحديثة ، والمساهمة الايطاليـة في نهضتها السياسية والمدنيـة — فجر النهضة المصرية — ١٧٦٠ — ١٨٤٠) ؛ وهو رؤيـة شاملة ورائعة قدّمها أ . فيرتسي . وكذلك كتاب (القضيّة المصرية من سنـة ١٧٩٨ الى ١٨٤١) تأليف تشي . جيليو ، المعروف بابحاثه الاخرى فـي التاريخ والسياسة المتعلّقين بالاستيطان ، او الاستعمار . ومن هـذه الفترة عينها انطلق باولـو منغانتي في كتابه (مصر الحديثة)، الـذي يمكن اعتباره واحـدا من اكمل الابحاث واحدثها في الاحداث التـي جرت في منطقة الدلتـا من القرن التاسع عشر الى ثـورة ١٩٥٢ .

ولا تختلف زَمَنِيًّـا نقطة الانطلاق في الكتاب الآخر (مصر من احداث ١٨٨٢ الى ايامنـا هذه) بِجُزْأيهِ ، للباحث ب . البيتي ؛ وقد عني فـي

هذين الجزاين عنايـة جادة بتحديد وجـه مصر خلال الاعوام الثمانـين الاخيرة من تاريخهـا . وانطلاقا من مقدرة المؤلـف الفريدة ، وتحليلاته الدقيقة ؛ وبحثه الجـادّ ، استطاع — وهو موظف كبـير في وزارة الخارجية الايطالية — أن يكمل كتابه في عـدة سنين ، كما يبدو مـن مقالاته المنشورة في مجلات مختلفة ، حول أزمنـة معيّنة من تاريخ مصر الحديثـة .

ويمكننـا أن نذكر بين المصادر التاريخيـة ذات الاهمية القليلة او الكثيرة ، اضافةً الى كتيّب للباحث أو . توسكي ، اعمالا ايطاليـة عديدة تساهم في معرفـة تاريخ مصر بين قرنين . وقد اغفلنا الاشارة اليها لان مؤلفات منغانتي قـد اشارت الى اهمّها في ثنايا الفصـول .

قنـاة السويـس :

وقنـاة السويس ، التي ولدت في القرن التاسـع عشـر باهتمـام دَوْليّ ومصالح مشتركة ، وبمباركة الجميـع ، ولـم تلبث ان اصبحت مثار جدل محتدم على اثـر تأميم عبد الناصر لهـا في صيف سنة ١٩٥٦ ؛ لقد كُثُرَتْ حولها الابحاث والدراسات والمقـالات ، ليس فقط مِن قِبَل المؤلفين الذين سَبَق ذكرهم ، بـل مِن قِبَل كثيريـن آخرين وقفوا العديد من المقـالات على هذه المشكلة الشائكة ، لكـي يبرزوا بشكل خاص تعقيداتها السياسية والقانونية . جميـع الظروف التاريخية الماضية والحديثة التي كان فيها ذلك المـرّ المائي ذا دور حاسم من حيث النقـل العسكري ، كانت تبـدو مناسبات تُفْرِض على الباحثين خوض ذلك الموضوع . وكمـا أن الحرب الايطاليّة الحبشيـة، عـام ١٩٣٥، أوحت الى سَمّارْكو بأن يكتب مقالـه (الحقيقة حـول قنـاة السويس) ، وعنوانه يرينا نيّـةً سابقة مبرمَجة لدى المـؤرخ لالقاء الضوء على قضايـا ذات اهمية رئيسية ، كذلك أوحت اليـه الحرب العالمية الثانية بوضع كتابـه (السويس — تاريخ ومشكلـة) . ولكنه في هذه المـرة أراد ان يوضح لنـا بعض الوجوه بشكل أوسع ،

واستنادا الى وثائق مصرية واوروبية غير منشورة . وقبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة ، خرج الى النور كتاب بعنوان (قناة السويس والعلاقات الانجلو مصرية) للباحث ب . البيتّي ؛ وكتاب (السويس) وفيه أعادَ اي . انكيري طبع كتاب كان قد نشره قبل ذلك بعامين ، واكمله بأحدث المعلومات . والببليوغرافية الغنية التي يتضمَّنها هذا الكتاب تُغنينا عن اية اشارة اخرى .

السودان :

وهناك عبء آخر في التاريخ المصري الحديث ، وقد ظَلَّ كذلك عشرات السنين ؛ ذلك هو السودان الانجلو مصري ؛ وهو حكم مشترك عاصف كان قد تَقَرَّر منذ سنة ١٨٩٩ لذلك القطر الواسع جنوبي نهر النيل ، ولم يكن اقلَّ من قناة السويس اثارة للنزاع والفوضى بين حُكْمين متخالفين . وقد اضطر الانجليز والمصريون الى النزول عند مطالبة اهله الشرعية بالاستقلال . وأُعْلِنَ الاستقلال رسميًّا في ديسمبر ١٩٥٥ . وقد خصص سَمَّارْكو ، ومِنفانتي ، والبيتّي ، في مؤلفاتهم المذكورة آنفا ، فصولا لهذه القضية ، فأوضحوا ببراعة فائقة الوجوه البارزة المختلفة ، وأصدروا في ذلك تقييمات موضوعية . وقد قام اي . انكيري ، و أو . توسكي بتحليل احداث الامس واليوم في مصر : الاول فعل ذلك بكتابه (تاريخ السياسة الانكليزية في السودان ، ١٨٨٢ — ١٩٣٨) والثاني في صورة سريعة للقضية اجملها في كتيّب يؤلف مع كتابه السابق حول مصر لوحة عضوية ذات وجهين . واوسع من ذلك كتابٌ وَضَعَهُ ا . ميلّليني بونشه دي ليون ، عنوانه (تاريخ السودان الشرقي وبعض وجوهه — السودان الانجلو مصري) ؛ وهو جدير بأن نذكره بين الاعمال الحديثة جدًّا ، وبالتالي بين اوفاها واشملها ، ولكنه يخلو من اية اشارة الى الوضع الذي انتهى اليه البلد حالا بعد الحرب العالمية الثانية ، حين احتدم النزاع بين الوحدويين ، الذين كانت القاهرة تشرف على تنظيمهم وتوجيههم لدعم الوحدة مع مصر ، ومعارضيهم الاستقلاليين .

ختـــام :

بهـذه الاشارة الى اهـم الاحداث التاريخية والانعطافات السياسية في العالم العربي في نهايـة القرن التاسع عشر ، التي اوضَحتْها ايضـا ايضاحا كافيا الفصولُ الاخيرة من الابحـاث التاريخية العامة والجزئية ، نختتم هذه المراجعة السريعة لأهـمّ الجهود الايطالية في حقـل التاريخ العربي خلال الاعوام الخمسين الاخيرة . وقـد لا يكون الحصاد وافرا في بعض الحقول ، ولكنه وافـر فعلا في حقول اخرى . وقـد جمعناه مما عُنيَ بتأليفه المستعربون ؛ وهـم ذوو فضل في انهم كثيرا ما هيأوا للباحثين الآخرين امكانية الوصول مباشَرَةً الـى المعلومات ، او بالأحرى قَدَّموا لهـم المَثَلَ في التخصُّص المِهْنـي ، والانقطاع الى دراسة عالَـم ظَلَّت البحوثُ الخاصةُ بمسيرته التاريخية زمنـا طويلا تُعْتَبَر هامشيّةً بالنسبة الى تاريـخ الانسانية الأكبر ، ولكنه اليوم ــ اخيرًا ــ لم يَعُـدْ خارج نطاق الابحاث العلمية المتخصصـة .